من أرض بلقيس

عبد الصبور السايح

كتاب طيوف سلسلة من إصدارات يسطرون

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

الإشراف الأدبى

السيد حسن

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

المدير التنفيذى

هناء أمين

الطبعة الأولى
الكتاب : من أرض بلقيس
المؤلف : عبد الصبور السابح
تصنيف الكتاب : أدب رحلات
تصميم وإخراج : مؤسسة طيوف
تصميم الغلاف: رشيد شعلان
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٩٧٧٨ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 399 - 8

العنوان : ٢٩٨ شارع الملك فيصل - محطة ضياء

Email : ketabtoyof@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : كتاب طيوف

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى

الخطاط العظيم

الأستاذ

محمد عبد المطلب علم الدين

محبة وشكرا

نحن أمة عظيمة أعطاها الله تعالى كل وسائل القوة

لتكون خير أمة أُخرجت للناس

فأبت إلا أن تكون عالة على غيرها

عبدالصبور السايح

انطباعات أولى

حين هبطت بنا الطائرة فى مطار صنعاء الدولي، استقبلتنا بمطر غزير بارد أثار فى نفوسنا انتعاشة جميلة مبهجة، على الفور انتبه أحد زملائي إلى الأفواه المحشوة بالقات، فمازحني سائلا :

— هل يوجد هنا مرض يسبب تورم الأفواه؟

نكزته بكوعي حتى لا يسمعه أحد الجنود المتحلقين حولنا بصالة الدخول؛ فيغضب.

بعد أن أجرينا إجراءات الدخول حملتنا سيارة أجرة رحب بنا سائقها بعد أن سألنا عن محل إقامتنا فى مصر، أجبته على الفور :

— صعيد مصر.

هز الرجل رأسه برضا:

— قبيلي؟

لم أعرف معنى هذه الكلمة من قبل، فهمت أنه يقصد بها الانتماء إلى قبيلة.

فأجبته على الفور:

— نعم .

رد بترحاب :

— أنتم أهلنا ونحن نحب الزعيم ناصر .

ثم عقب بزهو:

— كان عظيما .. يرحمه الله،ساند ثورتنا حتى النصر

فى ميدان التحرير كانت أضواء صنعاء المبهرة تنعكس على مبانيها الحجرية فتصنع فى عيوننا لوحة إبداع مبهرة.

استقبلنا بعض معارفنا ممن سبقونا إلى صنعاء، ثم قادونا إلى شقة يستأجرونها بجوار سوق الملح .

اكتشفنا بعد وجبة العشاء التي تناولناها دون أن نعرف اسمها عدم وجود سكر بالشقة ولأننا اعتدنا على تناول الشاي بعد كل وجبة تطوعت بالنزول إلى الشارع لشراء السكر من محل مجاور.

حين طلبته من البائع العجوز رمقني بنظرة ازدراء ثم سألني كمن يتأكد من جنسيتي:

— مصري؟

اندهشت للسؤال المفاجئ فأجبته بحسن نية:

— نعم .

أشاح بيده غاضبا:

– أجزع..

لم أفهم معنى الكلمة وإن كنت قد شعرت لحظتها بإحساس غريب ينتابني، كررت له مطلبي مرة أخرى،فأصر على رفضه بعناد غريب رغم وجود أكياس السكر أمام عيني.

تعجبت من رفضه فسألته: ما السبب؟

أجابني بحدة صادمة:

– أنتم تخليتم عن صدام.

حدثته عن مظاهرات ملايين المصريين الرافضين للموقف المصري الرسمي وقتها فلم يقتنع.

رجعت إلى الزملاء وأنا فى إحباط شديد أفكر فى تداعيات المواقف السياسية بين الدول العربية وآثارها السلبية على شعوبها.

حكي لنا بعض الزملاء عن الكثير من المضايقات التي صادفتهم فى أيامهم القليلة التي سبقونا فيها إلى صنعاء .

بعض أصدقائي قرروا العودة إلى القاهرة وبعضهم ظل على تفاؤله من تحسن الأمور.

فى الصباح كنت أكتشف المدينة بمفردي وأنا أدخن سيجارة كمران لها نكهة غريبة بشهية مفتوحة.

فى مقهى ((آزال)) التقيت بجنسيات كثيرة، فاتقدت رغبة قوية فى نفسي لاحتضان الجميع والتعرف عليهم والتحدث معهم .

عصير ثمرة العنب (بفتح العين وتسكين النون) الاستوائية كان مدهشا ورائحة البن تنبئ عن صباح مختلف وحياة جديدة .

وقتها .. بدأت علاقتي مع صنعاء الإنسان والمكان والتاريخ والعادات والتقاليد والأزياء واللغة وأشياء أخرى كثيرة حفرت لها مكانة عزيزة في نفسي أعتقد ستظل إلى أمد بعيد تشدني إليها بحنين غريب لا أعرف له أسبابا واضحة سوى أنني عشقت مدينة يعبق التاريخ في جنباتها حياة وتفاصيلا صغيرة ثبتت في عيني نقوشا رائعة وعمارة فريدة وحارات صغيرة هادئة وعيونا حوراء تسألك في حياء :

— من أنت ؟

دون أن تجد إجابة ممكنة تفصح عنك

— يا الله كم هي مؤلمة غربة أرواحنا عندما نحس بها حبيسة في عالم يصعب فيه الاتصال بالناس.

فى باب اليمن

لم أتعرف على الاتجاهات فى صنعاء إلا بعد وصولي إليها بيومين، لهذا كنت أترك أقدامي تقودني إلى حيث تشاء، فى المدن كعادتي لا أرغب كثيرا فى ركوب الحافلات إلا لضرورة ملحة معتقدا أنها لن تمكنني من رؤية التفاصيل الصغيرة للحياة والناس، بعد رحلة قصيرة لا تتجاوز ربع ساعة انتقلت من حي التحرير إلى باب اليمن، شاهدت في الطريق صنعاء القديمة التي وضعتها منظمة اليونسكو ضمن تراث الإنسانية محاطة بسورها التاريخي تطل من خلاله عماراتها الشاهقة من بعيد كلوحة مزخرفة متناسقة الألوان، وقفت أمام باب اليمن بمدخله الشامخ لبضع لحظات فأخبرني أنه تحصن فى زمن ما ضد اللصوص، انسللت فى خفة مع المارة إلى أعماقه منتشيا بروائح البخور والعطور والبن والتبغ، ومندهشا بأنواع البضائع المرتبة بحنكة رغم وجود معظمها على الأرض، أعجبتني الجنابى وهى خناجر صغيرة معقوفة النصل مصنوعة من معادن متفاوتة الثمن وتحتل عند اليمانيين مكانة كبيرة لأنها تمثل بعض إرثهم عن الأجداد، يتبارى صناعها فى زخرفتها ككل شيء فى حياة اليمانيين المباني،الأزياء، الأكف وغيرها. والجنابي تمثل طبقات المجتمع من حيث الثمن وتتفق جميعها فى الهدف.

فـى داخـل بـاب اليمـن يتجـول سـياح كثـيرون تلتقـط كاميراتهـم صـورا عديـدة لأشـياء تثيرهـم فـى حيـاة اليمانيـين و تجارتهـم وسـلوكياتهم وهـذا يحـدث فـى أي مـكان لكـن الأغـرب والأجمـل أن ترصـد أنـت نظـرات السـائحين وهـم يلتقطـون بعيـون مندهشـة صـورا لشـيخ يمانـي يصلـى أمـام متجـره فـى خشـوع واطمئنـان.

أيام فى (آزال)

يلعب المقهى دورا بارزا فى حياة الكثيرين من الناس فهو مكان الترويح عن النفس والاجتماع مع الأصدقاء والجلوس للتأمل في الحياة بعيدا عن حركتها الصاخبة فى الشوارع أو العمل .

تختلف نظرة الناس إلى المقهى سلبا و إيجابا فمنهم من يرفضه رفضا كاملا وبعضهم – مثلى– يقيم معه علاقة أنس وصداقة تزداد مع الأيام والأحداث قوة وألفة وهذا ما حدث معي حال معرفتي بمقهى (آزال) الشهير بالعاصمة اليمنية صنعاء، يقع المقهى فى منطقة استراتيجية عند تقاطع شارعي محمد محمود الزبيري وشارع التحرير، وشارع الزبيري هو الأشهر والأجمل فى صنعاء وقد سمي باسم شاعر اليمن العظيم تخليدا لذكراه نضالا وكفاحا وتأثيرا فى حياة وطنه ومجتمعه .

لقد كان الزبيري قبسا بهيا من شعر وطني حر يوقظ الهمم ويشير إلى صباح أبهى يستحقه من لا يستسلمون لهوان وطنهم أو تجاهل واجبهم نحو رفع رايته والعمل على دفع مسيرته إلى الأفضل.

وقد أدى محمد محمود الزبيري هذا الدور مخلصا نبيلا من خلال كتاباته وأنشطته وأسفاره فاستحق هذه المودة الكبيرة من أبناء شعبه .

أما شارع التحرير فهو المدخل الرئيسي لأهم مناطق العاصمة حيث المصالح الكبرى ومجلس النواب ومبنى البريد وفندق تاج سبأ ووزارة التربية وسوق الملح وحديقة التحرير التي تخلد دبابتها الرابضة في وسطه ذكرى الثورة عام ١٩٦٢م

في مقهى (آزال) الكائن بين شارعين بتصميم يتيح لك فضاءات رؤية مفتوحة وعلى مقاعده الصخرية وفي جو صنعاني ساحر تستطيع أن تلتقي بالكثيرين من جنسيات مختلفة عربية وأجنبية لتشعر وقتها أنك في ساحة معرض بشرى كبير يتباين فيه كل شيء اللغات، اللهجات، الثقافات، الأزياء، الملامح، الإحساس بالحياة وغيرها من الأمور إلا أنك رغم كل هذه التباينات تشعر بدفء إنساني مبهج تتحول فيه الحياة إلى نقطة التقاء صغيرة.. تلك النقطة التي يبحث المبدعون والمفكرون والعلماء وأهل الفنون و أصحاب النفوس الشفافة عنها للفوز بلحظات إنسانية عالية المتعة غالية القيمة رخيصة التكلفة .

في (آزال) كان للمعلمين المصريين الحضور الأكبر بهموم اغترابهم وتطلعاتهم وسخريتهم من كل شيء في حالة يفسرها علم النفس بحالة مقاومة للواقع بالسخرية منه بغية انتقاده وتقويمه.

بهذه الصورة تحول مقهى (آزال) عند رواده إلى متنفس كبير ومصنع كبير للنكات التي تبدعها بعفوية كاملة نفوس مرهقة وهو في نفس الوقت محطة إذاعية لكل شاردة وواردة في الواقع والصحافة والإذاعات؛ لهذا كان المقهى لا يخلو من عيون تراقب وآذان تسمع، ولهذا اخترع بعض خبثاء رواده شفرات كلامية لا يفهمها سواهم كنوع من الحذر أو الإحتياط.

ذات مـرة تهجـم علينـا مواطـن يمـني بطريقـة سمجـة بمجـرد أن عـرف أننـا نحمـل الجنسـية المصريـة، وقتهـا لعـب الإعـلام الحكومـي اليمنـى دورا كبـيرا فـى دعـم الموقـف العراقـي علـى حسـاب الوضـع فـى الكويـت ..وقـد انقسـمت الآراء إلى..مـع وضـد.. وأصبـح الجـدل والتعـارك والإتهـام مـن سمـات تلـك المرحلـة، تهجـم علينـا الرجـل متهمنـا بصفـات تسـأل عنهـا أنظمـة لهـا مبرراتهـا، لا شـعوب مقهـورة مـن جهاتهـا السـتة تطـارد لقمـة عيشـها هنـا أوهنـاك، لقـد تحملنـا سـفاهة الرجـل كثـيرا حتـى بلغنـا الضجـر مبلغـه، وتشـاء الأقـدار أن ينهـض مـن بـين الحضـور مـن يعتـذر لنـا بـأدب جـم ثـم يجـر الرجـل بطريقـة مؤلمـة إلى خـارج المقهـى. بعـد أيـام التقيـت هـذا الشـخص الـذى دافـع عنـا فـى المقهـى صدفـة فتعرفـت عليـه ومنحتـه ليمونـا منعشـا فصارحـني أنـه مـن كبـار مسـؤولي الأمـن فـى العاصمـة وأنـه من عائلـة السـياغى الـتي تقيـم فـى إحـدى القـرى المجـاورة لصنعـاء وأنـه كان قـد سمـع ورأى مـا حـدث مـن البدايـة وكان عليـه –حسـب رأيـه– أن يقـوم بمـا فعـل. كان لهـذا دور كبـير فـى إبـرام صداقـة باعتـزاز مـع هـذا الشـهم الـذى تعرفـت مـن خلالـه علـى شـخصيات كثـيرة حفـرت لهـا فـى وجدانـي صـورا جميلـة لا تبهـت مـع الوقـت، تلـك هـي الحيـاة الـتي عرفناهـا بصـورة مصغـرة فـى مقهـى (آزال) الـذى يعيـش فـى داخلـي كأحـد الأماكـن الـتي ارتبطـت بهـا ولا أسـطيع نسـيانها لا لشـيء سـوى أنهـا بعـض عمـر بهـى.

فيروز فى ...صنعاء

فـى الطريـق إلى (اقـرأ) إحـدى المكتبـات الشـهيرة بمحيـط ميـدان التحريـر بصنعـاء كنـت أردد بيتـين أفلتـا قهـرا مـن قبضـة ذاكـرة تكتـظ بأشـعار الحكمـة :

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا

وسافر فى الأسفار خمس فوائد.

تفريج هم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد.

وقتهـا كانـت أحـداث الكويـت تلقى بظلالها السـوداء علـى الخارطة العربيـة لتخلـق – بعـد فشـل غريـب ومعتـاد للجامعـة العربيـة في جمـع الأسـرة العربيـة – معسـكرين متنافريـن يتقاتـلان بلغـة لا شـأن لهـا بقوميـة العـرب أو مسـتقبلهم أو حتـى مجـرد حقهـم فـى حيـاة آمنـة مسـتقرة تهتـم بالتنميـة والصناعـة وإيجـاد وتطويـر خدمـات ضروريـة لشـعوب لعـب بهـا المسـتعمرون وأصحـاب المصـالح عقـودا متعاقبـة .

إذن ما جدوى الذهاب إلى (اقرأ) أو غيرها؟

وما جدوى أن تدور على مكتبات الصحف لقراءة أخبار أمة لا هم لها سوى الركوع والاستجداء والعيش بمهانة على نتاج أمم أقل شأنا وربما بلا إمكانيات غير أن هذه الأمم وجدت لها حكومات وطنية فأخرجتها من مستنقع الاستهلاك إلى فضاء الإنتاج .

ثمة أسئلة لا حصر لها تشتعل فى رأسي وأنا لا أستطيع مقاومة رغبة الذهاب إلى إقرأ التي كانت تلبى لي احتياجات لا أنكر سعادتي بها .

لقد أصبحت أنا بما لا شك فيه وجها معروفا لأصحاب مكتبات بيع الكتب فى صنعاء، بريالات قليلة كنت أشترى كتابا ثريا غالبا ما يكون لكاتب عربي لم أتمكن من متابعة أعماله فى مصر بسبب سياسة ثقافية لا تتيح الوجود لغيرها إلا فى هامش ضيق للغاية، لذا كنت أدخل إلى المكتبة نهما بلا حدود لألتهم بعينى العناوين المتبرجة بلا استحياء على أغلفة كتب بيروتية أنيقة جديرة بالاقتناء، إنني الآن أجمع فى يدى روايات الرهينة للروائي اليماني زيد مطيع دماج وليلة القدر الفائزة بالبوكر للطاهر بن جلون وموسم الهجرة للسوداني الطيب صالح وغيرها الكثير دون أي حساب لما فى جيبي من نقود، حتما سأضطر لشراء ما تيسر منها للمحافظة على مبلغ بسيط يتناقص دون وجود عمل يرفده بما يبعث فى النفس حالة من الأمن الضروري لغريب انقطع عن أهله وأصبح رهنا لواقع لم أستبطن خبايا الرزق فيه، لا سبيل إذن سوى الاقتصاد فى كل منافذ الإنفاق حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

بائع الكتب على مقعده المنخفض يتابعني بنظرات لها معان كثيرة، ربما كان يفكر بتعجب فى كثرة ترددي على المكان أو نوعية الكتب التي أختارها بعد السؤال عن مكانها توفيرا للوقت أو ربما كان مشغولا بشأن الشارع الذى تتكاثر فيه موجات الاحتجاج ضد ما يصادم حياة الناس ورغباتهم، غير أنه يتلهى بأعواد قات غضة ونظيفة ومنسقة فى حزمة مغلفة بالسولفان بجواره وكتاب لأنيس منصور يرصد فيه رحلاته حول العالم فى ٢٠٠يوم، إذن كلانا هارب فى عالم مغاير ومناقض تماما لواقع لا نرضى عنه.

أخيرا أنصرف حاملا كتبا ستكون خير صديق لي فى المعرفة وطرد هواجس القلق والملل والرتابة من حياتي وسوف أتقاسمها مع رفاق البحث عن الذات وقد تكون سببا لبهجة محتملة وحوارات مطولة .

فى مقهى جانبي على بعد خطوات سأتناول فطيرة محشوة بالسلطة والبيض، فطيرة واحدة تكفى لإسكات صراخ معدتي التي تم برمجتها قهرا على قليل دائم خير من كثير منقطع .

ها هو صانع الفطائر يفرد بمهارة كبيرة قطعة من عجين على صاج فرن مدهون بقليل من الزيت ثم يكسر بيضة ويخفقها بسرعة ليصبها على الفطيرة دون أن تنسى يده المدربة الواعية إضافة القليل من سلطة الطماطم وأوراق الكرنب المجهزة سلفا ثم يقلبها على وجيهها لتصير كوردة حمراء مغرية .

على مقعد منزو سأستريح بعد أن أطلب من صاحب المقهى

شايا بالحليب، وبسرعة جائع سأبتلع الفطيرة ممنيا نفسى بجولة ممتعة فى كتاب، لكن شخصا بجواري يطالع وجهى باستغراب فيثير قلقا كامنا فى نفسى لأسأل نفسى :

— من الرجل ؟ وماذا يريد منى؟

ولم تتأخر الإجابة كثيرا فقد نهض الرجل لتحيتي والتعرف على شخصى، لأكتشف أنه صاحب جريدة (اليمن السعيد) وأنه يبحث عن محررين يشاركونه العمل فى صحيفته التي يعقد آمالا كبيرة على نجاحها، رحبت به وتحدثنا طويلا فى أمور شتى انتهت بتأكيد رغبته فى انضمامى إلى فريق عمل صحيفته، حدثته عما نشرته خلال تلك الأيام من قصص وقصائد فى ملحق صحيفة (الثورة) أشهر الصحف اليمنية وأكثرها انتشارا فسر الرجل كثيرا وصمم أن يصحبني إلى مقر صحيفته، فلم أتردد. فى شقة بسيطة قابلت بعض الأشخاص فتعارفت معهم، و سعدت بالحوار الذى حاولت أن يكون محايدا إلى حد كبير حتى لا أضع فى نفس أحدهم ما لا يروق له راغبا فى التشبث بفرصة عمل تخفف عنى قسوة الاغتراب وتفتح لي باب رزق فى مجال أحبه كثيرا.

حين دخلت السيدة الجميلة الأنيقة إلى مقر الصحيفة لاحظت من لهجتها اللبنانية روحا مبهرة تشع فى جوانب المكان، بعد أقل من نصف ساعة جلست فيها السيدة إلى جوار صاحب الصحيفة وحاورته فى خطة عمل أعدتها لجلب المزيد من الإعلانات الترويجية لدعم الصحيفة تم تكليفي بالذهاب مع السيدة إلى مقر إحدى الشركات الكبرى بشارع الزبيري، اندهشت للمفاجأة فاستجبت للتكليف فى سعادة، فى السيارة أدرت حديثا

قصيرا مع السيدة كتعريف شخصي لابد منه، بينما تركت لصوت فيروز المنطلق من مذياع سيارتها مساحة واسعة للركض فرحا في عالم مدهش من الابتهاج، كانت لهذه السيدة قدرة غريبة على إجبار أصحاب الشركات على إبرام عقود نشر إعلاناتهم عبر اليمن السعيد، نصف مليون ريال حصيلة إعلانات لست شركات كبرى في يوم واحد جعلت صاحب اليمن السعيد يكاد أن يطير فرحا، ولم ينس قبل أن أغادر المكان أن يمنحني ثلاثمائة ريالا كانت أول رزق لي في الأسابيع الأولى لي في صنعاء، خرجت من عنده سعيدا تلوح أمام عيني حمامات سلام بيضاء وصوت فيروز يملأ مسامعي نسم علينا الهوى.

السيد سطوحي

هذا هو اسم الرجل الذى أسعدتني الأقدار بالتعرف عليه أثناء تجولي فى شارع الزبيري فى العاصمة اليمنية صنعاء، كنت وقتها فى انتظار صديق يعمل طبيبا فى اليمن وتحديدا بجوار مطعم سفير أحد المطاعم الشهيرة فى صنعاء لنتناول أنا وصديقي الطبيب الغداء الذى قرر أن يوثق به علاقة جديدة نشأت بيننا قبل يومين من هذا الموعد الطيب، كان الطبيب يشعر بغربة كبيرة فى تجربة سفر هي الأولى له خارج مصر، وهو ابن لأب مصري وأم سودانية كانت تعيش أسرتها فى مصر فى تلك الفترة التي شهدت إلى حد كبير تكاملا بين مصر والسودان، فى وقت انتظار الطبيب تصادف مرور السيد سطوحي أمامي بجلبابه الصعيدي وقامته الفارعة ووجهه الحامل لعلامات ابن بلد أصيل، اقتربت منه وسلمت عليه فعرفت أنه من إحدى قرى محافظة الجيزة وأنه يعمل مقاولا لأعمال الديكور والنافورات، وأنه يسكن فى حي الصافية أحد أحياء صنعاء وأنه يعمل منذ عشرين عاما فى اليمن، ترك الانطباع الأول لهذا الرجل اهتماما كبيرا فى نفسى للتعرف عليه فوعدته بزيارته فى بيته الذى يقع على السايلة فى مكان حدده لي فلم أنسه، حاولت أن يتناول معنا الغداء فرفض لأنه لا يأكل شيئا لا يعده بيده، احترمت إرادته وافترقنا

على أمل اللقاء فى وقت آخر. بعد لحظات انتظار وصل صديقي الطبيب وتناولنا معا الغداء مع حديث شيق دار عن انتشار أدوية كثيرة بين المواطنين بلا تراخيص وعن ضعف أداء المستشفيات والوحدات الصحية القليلة فى اليمن لأسباب اعتبرها اقتصادية، ورقابية وإدارية، إضافة إلى تعارف كل منا على الآخر بشكل كاف فى حميمية إنسانية عالية ونظرا لقناعتي بثقافة الرجل وأخلاقه الطيبة .بعد أيام ذهبت إلى السيد سطوحي فى بيته المكون من طابق واحد ويشتمل على شقة من غرفتين واسعتين يعيش هو فى إحداهما ويعيش فى الغرفة الأخرى محام مصري من الإسكندرية، استقبلني الرجل بترحاب كبير ثم عرفني على صاحبه وانصرف ليعد العشاء، جلست مع المحامي نتجاذب أطراف الحديث فعرفت أنه يعمل فى مشروع يخصه وأنه فى اليمن منذ عامين وقد فقد جواز سفره ويتابع السفارة المصرية لاستخراج غيره ليتمكن من العودة إلى مصر إلا أن الإجراءات استهلكت وقتا طويلا سبب له بعض الضيق . كان السيد سطوحي يمارس هوايته المفضلة فى إعداد الطعام وقد انتشرت رائحة الشواء فى الشقة الصغيرة بصورة مثيرة مشهية، بعد وقت دخل علينا السيد سطوحي ببعض الخضار المغسول طالبا منا إعداد السلطة فقمت بهذا الدور راضيا ورحت أقطع الطماطم والخيار إلى قطع صغيرة للغاية ثم أخلطهما معا تاركا له وضع البهارات والملح فى المطبخ. يتمتع السيد سطوحي بخفة ظل كبيرة وقدرة استثنائية على تأليف النكات وإطلاقها بطريقة غربية تحلق بك فى عالم من البهجة، شخصية جميلة تحتاج إليها فى الغربة لطرد هواجسك وشجونك تلك التي لا يعرفها سوى المغتربين عن أوطانهم. بعد الفراغ من

تناول الطعام سألت السيد سطوحي : ما الآية التي تراها فى العمارة اليمنية؟ اندهش الرجل من سؤالي المباغت وأجابني بعد لحظات تفكير غرق فيها: حقيقة لا أعرف، سألته موضحا : – هل تكمن هذه الآية التي أخبرنا الله عنها فى معرض حديثه عن سبأ فى البناء بالحجر مختلف الأحجام والأشكال والألوان؟ أم فى البناء على قمم الجبال؟أم للتقسيم الداخلي للمنزل اليمنى بما يتيح دخول الشمس والهواء إلى كل بقعة فيه ؟أم لشيء اخر لم نكتشفه . نحن نعلم أن معنى آية هو المعجزة أو العلامة فهل توجد معجزة باقية إلى وقتنا هذا لم نعرفها فى العمارة اليمنية او علامة تخصها دون غيرها من أنواع العمارات فى العالم ؟ كان الرجل وصاحبه يتابعان كلامي باهتمام كبير وكنت أرجو أن أضع يدى على أجوبة كثيرة تحتشد فى رأسي، غير أننا وبعد نقاش طويل على صوت ام كلثوم الذى يترقرق من حولنا فيشع فى نفوسنا أنسا بهيا لم نصل إلى تحديد نوع هذه الآية الكائنة فى العمارة اليمنية ونحن على ثقة تامة من وجودها فاقترحنا أن نسأل بها خبيرا للحصول على معلومات مؤكدة . ذات يوم دعاني السيد سطوحي للذهاب معه لاستلام باقي أجره من صاحب عمل فى حي حدة، كان صاحب هذا البيت الذى جهزه له السيد سطوحي يعمل مديرا لأحد البنوك المشهورة بميدان التحرير وكان بيته قصرا رائعا من خمسة طوابق وحديقة واسعة مزروعة بأزهار ونباتات لم يسبق لي أن رأيتها فى حياتي، أما البيت فقد أنفق عليه ببذخ شديد ليصل إلى درجة كبيرة من الروعة والإدهاش، ففي كل شقة نافورة مياه لها شكل مميز يعلوها سقف مذهب له رسومات مدهشة إضافة إلى زخرفة الجدران والنوافذ بمهارة عالية،

وعلى مدخل البيت سلسلة حجرية مصنوعة من حجر ضخم على شكل حلقات متداخلة تتدلى من طرفها العلوى المثبت بقوة فى الواجهة، حقيقة كانت السلسلة محكمة الصنع مبهرة الرؤية تدل على عزيمة حجار ماهر ولم أكن أعرف سبب وضعها فى مدخل البيت بهذه الصورة، إلا أنني وصلت إلى يقين أن من يملكون المال الوفير لهم القدرة على صناعة المستحيل حتى ولو كانوا غير راغبين فيه. فى هذه الزيارة عرفت قدرة السيد سطوحي على الإبداع الراقي والذى نتج من حبه الكبير لمهنته وإصراره الدائم على تطوير هذه القدرة ضمانا لعدم وجود من ينافسه فيها وتميزا يعتز به بعد سنوات طويلة قضاها فى هذا المجال . لهذا وثقت علاقتي به وداومت على زيارته كلما سمحت الظروف بذلك مستمعتا بالحديث الجاد المثمر معه و متواصلا مع شخصية جميلة تعتز بها أمام الآخرين. الغريب أن هذا الرجل كان مهتما بأهله فى مصر بصورة غريبة فلا يكاد يمر يوم دون الاتصال بهم ومتابعة أخبارهم وهو الأب لبنت مهندسة وابن يعمل أستاذا جامعيا والأغرب أنه لا يرى أبناءه إلا على مسافات متباعدة مكتفيا برؤية صورهم التي يحتفظ بها فى حافظته كلما هزه الشوق إليهم، أما زوجته فلا يكاد يمر عام حتى يرسل إليها بتذكرة سفر لتزوره فى وطنه الاختياري بإرادة غريبة ومحبة كبيرة.

بين قوسين

لم يكن فوز الشاب اليمنى الجنسية البريطاني المولد نسيم حميد كشميم فى حلبة الملاكمة العالمية حدثا عاديا وقتها على الساحة اليمنية، فما ان أسقط البطل اليمنى خصمه أرضا إلا وقد انتشرت أخباره الكبيرة والصغيرة وصوره فى التلفاز اليمنى والشارع اليمنى مبتهجة مفاخرة بهذا الشاب الذى استطاع بإقتدار أن يسطر اسمه فى دفتر أبطال العالم البارزين بحروف من نور، ثمة شعور جميل مبهر بالنصر يلوح على وجوه اليمانيين خاصة و على وجوهنا نحن كعرب ممن عاصرنا الحدث وتابعناه، وإحساس غريب يدفعنا إلى تساؤلات لا نمل ولا نتوقف عن طرحها لكل ذي عقل وإحساس سليم من القائمين على شأن حياتنا ونحن أحوج ما نكون إلى أجوبة شافية تحفزنا إلى كل نصر وإلى كل خطوة إيجابية تدفعنا إلى الأمام فى طريق الحياة والتفوق والنجاح :

— لماذا لا تظهر نجاحاتنا إلا خارج قبضة وجودنا فى المنطقة العربية ؟ مؤلم جدا أن تشعر أن وطنك وطوال عمرك ضد إطلاق طاقتك الخلاقة وقدرتك على تحقيق ذاتك. مؤلم جدا أن تستسلم لواقع سيء نسبة احتمال تغييره ضئيلة للغاية أو معدومة عند شبابنا الذى فاق عددهم الملايين فى حين أن دولا

صغيرة استطاعت –كالبرازيل مثلا– انتزاع احترام العالم فى مجال الرياضة رغم قلة إمكانيات هذا البلد مقارنة بإمكانياتنا الكبيرة المهدرة. مؤلم جدا أن نستسلم لحالة يأس شديدة الوطء نتيجة لسوء قيادة سفينة حياتنا فى بحار الواقع الهادرة الأمواج المليئة بالأخطار والتحديات لنصل إلى منطقة هناك ينظر العالم لمن فيها باحترام وتقدير وإعجاب كمنطقة الإرادة والانتصار.

طوال ست سنوات فى اليمن لم أر مثل هذه الفرحة الوطنية النبيلة فى عيون اليمنين يوم فوز نسيم الذى هاجر والده فى لحظة قدرية إلى بريطانيا شأنه فى ذلك شان ملايين العرب الهاربين قهرا من حيوات لم تحقق ذاتهم ولم يجدوا فيها أثناء وجودهم فى بلادهم ما يحفزهم للبقاء بين أهلهم غير القادرين على تغيير واقعهم إلى الهروب من قبضته الحديدية القاسية. فى حديث مع والد البطل اليمنى قال أنه دفع بابنه عندما كان صغيرا إلى أحد النوادي ليتعلم الملاكمة حتى لا يضربه الأطفال فى أي مكان. وهذا سبب وجيه للغاية من وجهة نظري لتعلم فنون الدفاع عن النفس تحسبا لأى خطر وهو فى حد ذاته دافع قوى للمحافظة على الكرامة الإنسانية فى عالم لا يعترف إلا بالقوة وبكل أنواعها والتي هي مطلب شرعي وفطري للوجود الآمن فى أي مكان. إن ضمان وجود القوة لأى إنسان أو جماعة أو دولة ليس معناه الاعتداء على الغير بقدر ما هو لازمة حياة ضرورية وهذا ما يجب أن نستوعبه بعقل واع وإرادة حرة لنعلمه لصغارنا كي يشبوا فى حالة أخرى قادرة على تغيير واقعها إلى الأفضل باستمرار ودون أي خوف . إن سوء إدارة حياتنا بما لا يحقق وجودنا المنتصر هو أساس إحساسنا

بإنهـزام داخلـي يجعلنـا نواجـه الحيـاة بخـوف كبـير حـد الرهبـة فـلا نحقـق مـا نريـد مـن حياتنـا ولا نسـعد بهـا . ومـن العجيـب للغايـة أن تجـد هـذه الإدارات الفاشـلة فـى اسـتخدام مواردهـا البشـرية تصفـق لـكل ناجـح ليـس فـى الحقيقـة تشـجيعا لـه ولأمثالـه مـن الشـباب ذوى الإرادات الكبـيرة والمهـارات العاليـة بـل تجميـلا لوجههـا القبيـح المطلـي بعشـرات مسـاحيق الخيبـات والعجـز وسـوء التخطيـط وضعـف الشـعور الوطـني وعـدم الرغبـة فـى تحقيـق الـذات بـأي صـورة وتحـت أسمـى غـرض حتـى لـو كان هـذا الغـرض هـو الحصـول علـى كرامـة إنسـانية لا تخضـع لإرادة الغـير ممـن يسـتهينون بـكل ضعيـف.

ذكريات من صنعاء

فى صباح ربيعي من صباحات صنعاء الجميلة وبعد أن طالعت بعض الصحف اليمنية فى مقهى (آزال) قررت الذهاب إلى اتحاد الأدباء والكتاب اليمنين، تخيلت نفسى لحظتها أنني فى حضرة أدباء اليمن الكبار ممن كنت أتابع إبداعاتهم الراقية فى العديد من الصحف والدوريات العربية، كان لي شوق كبير لمعرفة الشاعر اليمنى الكبير الدكتور عبد العزيز المقالح والذى كان يشغل وقتها رئاسة جامعة صنعاء والذى يعرفه الكثيرون من المهتمين بالأدب فى مصر كونه أحد مجايلي أمير شعراء الرفض أمل دنقل رحمه الله فى السبعينات وقد انتشرت أخبار صداقته مع أمل دنقل وعبدالرحمن الأبنودي فى الصحف والمجلات المصرية وقتها، وقد قرأت بعض ما كتبه المقالح عن هذه الصداقة التي يعتز بها والتي كانت سببا عظيما للتعرف على الحياة الأدبية والثقافية فى مصر فى فترة ازدهرت فيها الحياة الأدبية والعلمية فى مصر، إضافة إلى رغبتي فى لقاء عبدالله البردوني أحد ثلاث قمم تبوأت فى نفسى منزلة عظيمة بعد أن قرأت له لعيني أم بلقيس وزمن بلا نوعية وأعراس الغبار وكل ما وقع فى يدى لهذا العملاق الذى خرج من كوة نور واحدة مع عميد الأدب العربي طه حسين ليثبتا لنا أن الإعاقة ليست فى فقد البصر بل

فى فقد البصيرة وليكونا معا البردوني وطه حسين مثالين رائعين للتشبث بالأمل والإصرار على تحقيق الذات رغم أقسى الظروف وأكبر المعوقات . كثيرون تمنيت أن أجلس معهم من أعمدة الثقافة والإبداع فى اليمن وقد كانت هذه الأمنية كفيلة للبحث عن مقر الكتاب والأدباء اليمنين والوصول إليه، كنت أعتقد أن وصولي للمقر سيفتح لي أبوابا واسعة من التعارف والعلاقات و الأعمال الأدبية التي لم أحصل عليها لمن أحببت متابعة نتاجهم الأدبي فى اليمن، غير أن هذه الأمنية لم تتحقق لسوء حظ لازمنى فى هذا الأمر ورغم تكرار ذهابي للمقر المكون من طابق واحد والصغير للغاية إلا أن أبوابه لم تخجل من زياراتي لها لتقابلني مغلقة فى كل مرة وكأنها تناصبني عداء لا أعرف سببه. بالسؤال عرفت أن أدباء اليمن يكتفون بالمقايل وهى الحجرات الواسعة فى البيوت اليمنية المخصصة لاستقبال الضيوف وقضاء وقت القيلولة معهم، وأن الكثيرين من هؤلاء الأدباء لا يداومون على جلسات أدبية بشكل ثابت، حقيقة صدمني هذا الأمر وبدد فى نفسى آمالا غالية كان من الممكن أن تمكنني من قراءة الأدب اليمنى والتعرف على البارزين من أعلامه بصورة أفضل من هذا الجهد الشخصي الذى أبذله فى ذلك، غير أن صديقا صنعانيا يدعى أحمد الشيباني خفف من مرارة هذا الإحساس ووعدني بالذهاب معه إلى من أحب فى بيته، كان الشيباني يكتب الشعر اليمنى الكلاسيكي والمكون بيته من شطرتين بقافيتين مختلفتين ثابتتين الأولى فى نهاية صدر البيت والثانية فى نهاية عجزه

وهـو نمـط شـعرى مشـهور فـى اليمـن وقـد أهداني الشـيباني مشـكورا كتابـا لأحـد شـعراء اليمـن البارزيـن فـى هـذا الفـن فأعجبـني الكتـاب ولكنـى كنـت فـى حاجـة دائمـة ليشـرح لـي الشـيباني معانـى المفردات العاميـة الـتي لم أكـن بعـد قـد تعرفـت عليهـا، ولهـذا كنـت ألتقيـه كلمـا سمحـت لنـا الظـروف لقضـاء فـترة صعلكـة حـرة فـى دروب صنعـاء وحواريهـا فـى سـعادة بالغـة حتـى إذا كلَّـت أقدامنا جلسـنا فى مقهـى ليحتسـي هـو الشـاي بالحليـب ولأحتسـي أنـا عصـير العنـب. كان الشـيباني قـد قضـى فـترة مـن عمـره فـى روسـيا و قـد سمحـت لـه تجربـة السـفر برؤيـة ثقافـات مغايـرة لثقافتـه الـتي كان يعتبرهـا ثقافـة منغلقـة لم تنفتـح بعـد علـى ثقافـات العـالم ولم يفلـت مـن قبضتهـا سـوى أولى العـزم ممـن عشـقوا الثقافـة والمعرفـة كمركـب حصـين للعبـور إلى رحـاب العـالم والتعـرف علـى ثقافـات الآخـر بـكل متناقضاتهـا وروعتهـا فـى كل مـكان، ونتيجـة لهـذه الرؤيـة عـاش الشـيباني فـى عزلـة نفسـية لا يقبـل الكثيريـن فيهـا، وقـد كنـت أنـا وقتهـا أسميهـا صدمـة الحضـارة وأمـزج مـع الشـيباني أنـه ضحيـة لهـوى الغـرب الـذى عـاش فيـه وأن عليـه ان يـزاوج بـين شـغفه لثقافـة الآخـر وبـين ثقافتـه الوطنيـة الأصيلـة وأن يتخـذ مـن معرفتـه وسـيلة لتطويـر مجتمعه والارتقـاء بـه، فالغـرب لم يتطـور إلا بعـد عصـور ظـلام وبعـد أن واجـه نفسـه مواجهـة صادقـة لمثالـب ذاتـه فوضـع يـده علـى مـكان الجـرح وعالجـه، غـير أن الشـيباني كان فاقـدا للأمـل تمامـا لأسـباب جوهريـة فندهـا لـي بعـدم وجـود وعـى ثقـافي جماعـي وعـدم وجـود مؤسسـات ثقافيـة كـبرى تسـتقطب المبدعـين وتنمـى مواهبهـم، وأن السـلطة لا تحبـذ الاهتمـام بالشـأن الثقـافي لأسـباب تخصهـا وتخشـاها وأن الأمـة العربيـة جميعهـا لا تسـتحق أن تكـون فـى مصـاف الأمـم الراقيـة

علما وسلوكا مالم تفرق بين الاختلاف والتخلف، فالاختلاف ميزة المبدعين الكبار والتخلف سمة الشعوب المستكينة لواقعها المكتفية بتلبية احتياجات جسدية لا غير . كنت والشيباني فى حالة عراك فكرى شرس ولذيذ للغاية فى آن واحد وكان كلانا مستمتعا بهذه الصداقة الفكرية الغريبة و مندهشا لحالة التقارب الغريب بيننا. وهو شخص غريب الأطوار يكثر من النوم كمن يهرب من شيء يطارده ويطيل الصمت حتى لكأنك فاقد لانتظار رده الذى ما يكون غالبا رائعا وسليما. كان أحمد الشيباني يندهش لقدرتنا نحن المصريين على الضحك رغم كل شيء وفى أصعب الأوقات غير مدرك لما نعانيه من ضغوط الواقع ولا مصدق لاستخدامنا للسخرية كسلاح ننتقد به من نشاء وما نشاء بطريقة تحتاج إلى ذكاء لا يثير الآخر بقدر ما يُقيِّمه ويوجهه إلى ما نواجه من أزمات.

بعد فترة استمرت لقرابة شهرين اختفى الشيباني فجأة ولم أعثر عليه مرة أخرى فترك فى نفسى فراغا كبيرا لشغب جميل من إنسان راق أنِست له روحي . بالسؤال عنه عرفت أن الشيباني قد غادر اليمن للعمل فى السعودية فى محل كبير لبيع السجاد والموكيت يمتلكه أحد أقاربه بعد أن خانه الحظ فى الحصول على عمل مناسب له فى بلاده. إلا أن رغبتي فى التعرف على أدباء اليمن الكبار لم تتبدد ولم تفتر خاصة بعد تعرفي على شاعر سوري جاء إلى اليمن هربا من نظام لم يحتمل طلقات شعره التي كان يوجهها إلى صدره بشجاعة كبيرة فكان قدره السجن وحصار لقمة عيشه فى دار نشر يديرها فى دمشق. ولا أكاد أنسى كيفية معرفتي بهذا الشاعر عبر قصيدة نشرها فى ملحق الثورة

الأدبي الذى كنت أتابع صدوره بانتظام وقد لقب نفسه ببدوي الجزيرة، وقد شاءت الأقدار أن ألتقيه أثناء متابعتي لمرسم بجوار بنك الإنشاء والتعمير لشخص تربطه بالشاعر صداقة ومودة، ذات مرة تحدثت مع الرسام بعد أن أبديت له إعجابي بريشته الماهرة وسألته كمبدع سوري يعيش فى صنعاء عن بدوى الجزيرة فإذا به يشير لي على رجل مسن أنيق الملبس يجلس فى نهاية المرسم واضعا إحدى ساقيه على الأخرى ومستندا على عصا معقوفة الطرف وغارقا فى أفكاره حتى نهاية رأسه حتى أنه لا يكاد يشعر بحديثنا عنه. كانت فرحتي بهذه المصادفة القدرية الغريبة كبيرة للغاية. اقتربت منه وصافحته وذكرته بقصيدته الجميلة التي نشرها فى الثورة قبل أيام مضت فانتفض الرجل واقفا مرحبا لتبدأ معه –منذ هذه اللحظة– علاقة إنسانية غالية اعتبرتها تعويضا من الله عن غياب الشيباني الذى لم يسقط من ذاكرتي لحظة واحدة رغم ما فى نفسى من عتاب عليه لسفره دون أن يخبرني به. كان الشاعر السوري على أبو ذراع الملقب ببدوي الجزيرة قد سبقني حضورا إلى صنعاء بعدة أعوام تعرف خلالها على الكثيرين من المبدعين اليمنين، كما أنه استطاع أن يوطد علاقته بالكثير من الإعلاميين والصحفيين ودور النشر التي تنشر له إنتاجه الأدبي باهتمام وتقدير .

لحظات مدهشة

بعد لقائي الأول مع الشاعر السوري على أبو ذراع الملقب ببدوي الجزيرة والذى أفلت بصعوبة بالغة –كما أخبرني– من قبضة سلطة غاشمة لا تقبل النقد أو الحوار فى بلاده شعرت

بتقارب كبير بيننا، كان الرجل شاعرا أصيلا مطبوعا ينبع الشعر من نفسه صافيا طاهرا ليروي ظمأ نفوس أرهقها القهر فى بلاد لا تقيم للإنسان الموهوب أو العالم العظيم أو النابِه النبيل أي وزن، هذه البلاد التي لا تختار سلطتها بإرادة حرة أو وعى كامل بحثا عن مستقبل الملايين من رعاياها، كما كان شخصا مرحا ودودا رغم أشجانه الكبيرة الناتجة من عدم قدرته على التواصل مع أسرته التي تقيم بجوار الحميدية بدمشق فى ظروف مادية صعبة لحصار السلطة لكل مصادر رزقها. كنت فى هذا الوقت قد نشرت فى الملحق الثقافي لصحيفة الثورة اليمنية قصيدة غزلية أسميتها سمراء فاستحسنها الشاعر وقام بمعارضتها بقصيدة على نفس الوزن والقافية يبث فيها أشواقه لبلاده وأسرته ويشكو من غربة يعيشها بعيدا عنهما، والأجمل أنه أهدى قصيدته إلى شخصي دون سابق معرفة. كانت سعادتي بهذا الإهداء كبيرة للغاية ومن نصه عرفت علو شاعريته وجمال لغته وسحر صوره الشعرية فأيقنت أنني أمام مبدع كبير مختلف وصاحب قضية يستحق البحث عنه والتعرف عليه فأمثاله قليلون للغاية، وأنا أعتقد تماما أن حياة الإنسان إنما تتحدد علوا وانخفاضا و سعادة وشقاء وطموحا و إحباطا بمن يعيش بينهم أو يتعايش معهم مع الفارق بين الحالتين كهذا الفارق الواضح بين الشيء وضده . فى المرسم الذى كان يديره صديقنا والذى كان سببا فى تعارفنا كنا نقضى أجمل أوقاتنا التي تكون غالبا بعد صلاة العشاء لتمتد إلى ما شاءت لها ظروفنا فى بهجة روحية عالية ونشوة كبيرة، فتارة تكون جلستنا شعرا أونثرا و لغة وتارة نتأمل صديقنا الرسام وهو يبدع بريشة غاية فى المهارة إنتاج عمل جديد من أعماله لا يخضع غالبا لمدرسة

فنية معينة بل يتجاوز كل هذه المدارس المعروفة إلى رؤية ذاتية متمردة مبهرة مقتنعا تماما أن المبدع الحقيقي قادر على إنشاء مدرسته الخاصة به وهو أيضا قادر على توصيل أفكاره للناس بلسان ريشته الحرة لا بلسانه الذى يعجز أن يكون حاضرا فى كل لحظة أو مع كل متابع. رؤية أعجبتني كثيرا وجعلتني أقتنع بأن النمطيين أو العاديين لا يصنعون الدهشة فى إبداعاتهم كهؤلاء المتمردين على واقعهم بوعى وإرادة ومعرفة. فى المرسم المطل على ميدان التحرير بجوار بنك الإنشاء والتعمير والذى ترى من بابه الزجاجي العابرين أمامه دون أن تزعجك أصواتهم أو جلبة الشارع المزحم بصبية يحاولون تعلم قيادة الدراجات النارية ..كنا نمارس الهروب من واقعنا المؤلم لأسباب فى دواخلنا بقناعة ورضا، وعلى مائدة صغيرة أمامنا تتبدل المشروبات السورية مرتين أو أكثر كل ليلة، كانوا كرماء معي لدرجة كبيرة، نبلاء فى تعاملهم وكانت ثقافتهم العالية محل إعجاب وتقدير كبيرين عندي. ذات ليلة أهداني الشاعر على أبو ذراع قصيدة طويلة بدأها بقوله:

ما بين وجهك والزمان تشابه ** هذا يضئ وذاك كالجمرات.
عبدالصبور فحيث أوجد موطني ** وبقاسيون أنا دفنت رفاتي

قصيدة طويلة سقطت مع الأيام من ذاكرتي غير أنها ظلت فى نفسى صورة لإنسانية عالية جمعت بدفء مشاعرها وصدق إحساسها بيننا. أي روعة تلك التي تشعر بها مع أشخاص تأنس بهم روحك وترتاح لهم نفسك. فى أثناء هذه الفترة وفى الأسابيع الأولى منها كان صديقنا الرسام ينجز صورتين على إناء فخاري يرتفع لأكثر من مترين، لا أعرف كيف حصل عليه في صنعاء،

تضم الرئيس على عبدالله صالح والرئيس على سالم البيض، كل فى جهة، وكان هذا العمل مخصصا من الرسام لحديقة القصر الجمهوري فى صنعاء وقد نال من الرسام جهدا كبيرا فى إنجازه بدقة كبيرة ولم أعرف وقتها هل قدمه للقصر هدية أم نال عليه أجرا غير أنني عرفت أن هذا العمل صادف قبولا كبيرا من إدارة القصر وقد صوره أحد الصحفيين وتم نشر صوره فى بعض الصحف وقتها مع حوار مطول مع الرسام الذى استطاع أن يعلن بقوة عن وجوده فى صنعاء.

عن الوحدة والحرب

كطلقة مضيئة في الظلام تحققت الوحدة اليمنية فجأة فانتشرت البهجة بحدوثها في كل مكان داخل اليمن و خارجه كبادرة أمل جميلة تحققت فعليا بعد اشتياق طويل لرؤية أسرة يمنية أكثر ترابطا و تفاهما ومواجهة للواقع ، وتقبل على مستقبلها بروح جديدة أكثر تفاؤلا وإقبالا على الحياة المرجوة لوطن يحاول النهوض متحررا من إرث كبير لانقسام استمر لسنوات طويلة فكان سببا رئيسيا لعدم تنمية البلاد وتطوير الخدمات فيها . غير أن كل واحد من قطبي النظام وقتها كان يحاول الإطاحة بالآخر لينفرد دون منافسة بمقعد السلطة فراحت علامات اختلاف الطرفين تقفز إلى السطح منذرة بحدوث ما يقلق و مبددة لفرحة حقيقية شعرت بها الجماهير اليمنية ورقصت لها في الشوارع والميادين والساحات والأزقة متغافلة أو متجاهلة عن قصد ما يدور خفية في المطبخ السياسي اليمني من أمور لم يفضحها الإعلام الرسمي لدولة بدأ فيها أحد جناحي السلطة كبيرا قويا في حين بدأ الجناح الثاني صغيرا ضعيفا ليصبح الطائر اليمني في صورته الجديدة غير قادر على التحليق المشتهى نحو سماوات جديدة كما أن هذا الطائر نفسه ظهر في حالة عدم إتزان نتيجة لرؤيتين مختلفتين لم يصلا في الحقيقة وبعيدا عن الصخب الإعلامي الزاعق إلى نقاط اتفاق

أصيلة أو صادقة ينطلقا من خلالها إلى ما يجب تحقيقه لحماية هذا الحلم الذى تحقق بعد انتظار طويل. وضع عجيب شديد الألم أثار آلام الشاعر اليمنى الكبير عبدالله البردوني حكيم شعراء اليمن لكى يطلق اندهاشته التي تختصر شرح الوضع فى بيتين بسيطين عميقين يحملان خوفا باطنيا من مستقبل قريب :

— عجيب أمر أخواني ....أيحكمكم عليان؟!

فيصدر أمره الأول ....ويلغى أمره الثاني.

هذان البيتان الساخران المؤلمان هما أصدق تصوير لمرحلة ما قبل اندلاع الحرب بين قوتين متصارعتين على حكم اليمن فى صيف ١٩٩٤ م والتي كشفت بكل صراحة مدى إختلاف الطرفين حول المقعد الرئاسي لليمن والذى كان يستحوذ عليه الرئيس على عبدالله صالح كصاحب لمنجز الوحدة ورئيس للقسم الشمالي الأكثر عددا من السكان، غير أن نظرة الرئيس السابق للشطر اليمنى الجنوبي فى هذا الوقت على سالم البيض كان له ولمن اجتمعوا حوله مناصرين له دون وعى أو طمعا فى تحقيق مصالح تخصهم كان لهم رأى آخر فكان الصدام بين الطرفين الشمالي والجنوبي لا قدرة لأحد على منعه من الحدوث، فالشأن داخلي والعالم يراقب بخبث شديد صراع الديكة وفى نهاية الأمر ستؤيد قوى لها مصالح مع السلطة الجديدة فى اليمن وسترفض قوى ليس لها من الأمر شيء أو أن الصراع الداخلي فى اليمن لا يهمها من قريب أو بعيد وهذا هو حال السياسة الدولية المبنى على المصالح ولا شيء سواها. أما دعاة الخير والأمن والسلام وبكل أشكالهم وتوجهاتهم فقد اختفى صوتهم ساعة أن بدأت الحرب

تـدق طبولهـا وتكشـف بـلا اسـتحياء عـن وجههـا القبيـح . كنـت وقتهـا شـاهد عيـان لتحـرك الجيـش إلى الجنـوب وقـد سمعـت ورأيـت الدعـم الشـعبي الكبـير للجنـود بالمباركـة والإمكانيـات الماديـة مـن طعـام وشـراب وعـلاج وسـلاح، لقـد انتفـض وقتها الجميـع رفضا لحالـة ألقت بظلالهـا القاتمـة علـى حيـاة النـاس مؤثـرة فـى سـلامهم الاجتماعـي ومعيشـتهم واسـتقبالهم للحيـاة فكانـت الرغبـة الجماهيريـة المدعومـة مـن النظـام الـذى أعلنهـا واضحـة صريحـة بضـرورة الإطاحـة بالبيـض كحـل وحيـد للاسـتقرار وبهـذه الطريقـة تمـت تعبئـة الجماهـير ضـد سـلطة الجنـوب والـذى كان هـو الجنـاح الأضعـف فـى الصـراع دون البحـث عـن بدائـل منطقيـة أو سياسـية أو إنسـانية لتفـادى مواجهـات عسـكرية بـين الطرفـين تنـذر بدمـار كل شـيء بمـا فيهـا حلـم الوحـدة نفسـه. إن الحكومـات اللاوطنيـة لا يهمهـا سـوى تحقيـق مصالحهـا الخاصـة دون النظـر إلى مـا يترتـب علـى ذلـك مـن آلام ومشـكلات عنـد المواطنـين البسـطاء. ودارت الحـرب فـى الأرض اليمنيـة بعـد الوحـدة العظيمـة بجـبروت كبـير وبـدأت صواريـخ الجنـوب الغاشمـة تفجـر نيرانهـا فـى الشـمال بكثافـة فـى نفـس الوقـت الـذى تم فيـه قصـف قـوات الشـمال للمواقـع الجنوبيـة لتنشـب فـى البيـت اليمنـى الكبـير حالـة مـن المخـاوف والقلـق وعـدم الاسـتقرار بـل والتضحيـات الغاليـة بدعايـات ممنهجـة و ممنطقـة وهـى أبعـد مـا تكـون عـن المنطـق السـليم الداعـي للاسـتقرار والتوحـد والأمـن. الغريـب فـى هـذه الحـرب مـا ظهـر مـن قـوى الشـر الداعمـة فـى خفـاء لـكل طـرف علـى حسـاب الطـرف الآخـر، فالسـعودية ومـن والاهـا تدعـم النظـام الجنوبـي لحاجـة فـى نفـس يعقـوب وروسـيا ومـن معهـا مـع نفـس الطـرف لحمايـة مصـالح قديمـة لهـا هنـاك وبعـض الـدول العربيـة

تدعم سياسيا قوة الشمال والتي بدت هي الأقوى فى الصراع بعد سقوط قاعدة العند المطمورة بكل شرورها تحت الأرض والتي لطالما هددت بصواريخها الفتاكة أمن الشمال إلى أن انتهى الصراع الدامي بهروب رأس السلطة الجنوبية وكبار معاونيه إلى جهة تضاربت حولها الآراء. فى هذه الفترة كنت فى مدينة أب أراقب الأحداث بألم كبير وأنتظر والجاليات العربية فرصة العودة إلى بلادنا فى ظروف توقف فيها السفر بالطائرات ولم يعد أمامنا سوى السفر من ميناء الحديدة. كان السفر إلى الحديدة عملية مرهقة فى طرق وعرة وظروف غير آمنة وكان اليوم الذى سافرنا فيه بالسيارة شديد الحرارة . فى الطريق إلى الحديدة مررنا ببيت الفقيه ومدينة زبيد المشهورتين بكثرة العلماء فيهما وكان السؤال فى داخلي عن مدى استخدامنا للعلم فى حل مشكلاتنا غير أن واقع الأمور لم يطرح فى داخلي أجوبة شافية مطمئنة على المستقبل .

فالذين أيدوا الحرب بحثا عن خلاص لا مناص منه لإنهاء حالة معقدة تمر بها البلاد من احتقان شديد سببه عدم التشاور حول مستقبلها لم يستفيدوا من إقرار بلقيس العظيمة بأهمية المشاورة ونبذ الرأي الواحد المقصور من رؤية ضيقة قاصرة على مصالحها لا مصالح الأمة، غير أنني كنت فى حالة رفض شديد لكون الحرب بين أبناء الأمة الواحدة كعلاج وحيد للموقف .

عادات وتقاليد

يعتبر الكثيرون من المفكرين وعلماء الاجتماع والتربية والنفس أن العادات والتقاليد لأى شعب أو أمة أو جماعة بشرية في العالم إنما هي حصيلة علاقة هذا المجموع بالحياة ومدى تقنينه الناشئ لموافقته أو رفضه لأمور يتعامل معها بشكل يومي تنظم سير حياته فيما تشبه اتفاقا اجتماعيا غير معلن صراحة يتفق على الالتزام به من كافة طبقات المجتمع وأطيافه، وبالطبع تنشأ هذه العادات والتقاليد من مكونات ثقافة هذا المجتمع التي يخضع لها كل حسب وعيه وإدراكه، وهى بالطبع خليط تأطر فى صورة اجتماعية مقدسة من القبيح والحسن تحكمها مبررات تكمن وراء القيام بها وتعتبر عادات وتقاليد المجتمع اليمنى جزء من منظومة العادات والتقاليد الإسلامية العربية الشرق أوسطية التي قد تختلف قليلا أو كثيرا في بعض جوانبها مع منظومة أي عادات أو تقاليد لها نفس المكونات المرجعية فى أي مكان آخر حسب تطوير هذه المنظومة أو مؤثرات الحياة العصرية وضغوطها عليها أو حتى نحت الزمن فى تكوينها العام كمنظومة اجتماعية تخضع لها الجماعة البشرية وتتصرف في حياتها حسب مقتضياتها.

– الشارع اليمنى

أول ما يتعرف عليه الإنسان عند زيارته لأى مكان باعتباره الصورة الخارجية لثقافة الآخر وتعاملاته وأزيائه و عمارته وحركته وغيرها من الأمور التي تكون انطباعا أوليا فى نفس القادم يتوافق معه أو يرفضه بدرجة نسبية تختلف من شخص إلى آخر حسب تقديره ووعيه.

يتميز الشارع اليمنى –فى المدن خاصة– بالتزام شديد يظهر فى عدم ظهور النسوة من أهل البلد ليلا إلا لحاجة قصوى، أما فى النهار فظهور النسوة عامة محتشم فى لباس أسود لا يظهر سوى الوجه والكفين إضافة إلى التزام قادة السيارات الداخلية بالعدد المخصص لكل سيارة دون تزاحم أو استغلال فى التعريفة المقررة لمسافة الركوب.

– اقتناء السلاح

يعد اقتناء السلاح بكافة أنواعه وأحجامه من المسلمات التي يؤمن اليمنيون بضرورتها وقلما تجد شخصا يمانيا بلا سلاح ناري أو خنجر معقوف مشدود على وسطه فيما يؤكد اعتزاز هذا الشعب بهذا التقليد. ذات مرة كنت فى زيارة صديق يمنى فى بيته فوجدت عنده أسلحة كثيرة وعندما سألته عنها أخبرني أن أعدادها فى البيت يفوق عدد أفراد الأسرة وأنه لا يخشى على أطفاله الصغار من استعمالها بحكم الاعتياد عليها.

– الزواج

تلعب الطبقية في اليمن دورا كبيرا في ارتباط طرفي الزواج الذى يكون غالبا مقصورا على القبيلة نفسها أو بين القبائل المعروفة بمكانة اجتماعية متميزة، فإذا تم الاتفاق والقبول بين الطرفين ظهر حجم ما يتحمله الرجل من نفقات كبيرة تتمثل في كمية الذهب المقدمة للعروس حسب اقتدار الشخص والوضع الاجتماعي وفى هذا الأمر مبالغة كبيرة تصل إلى حد الإسراف وتؤثر سلبا في التشجيع على الزواج كسُنة حياة وضرورة من ضروراتها إضافة إلى ما يقدمه الرجل إلى عروسه من ثياب وعطور مع ضرورة إطعام المدعوين لمباركة هذا الحدث كيفما كان عددهم جريا للعادات المتوارثة.

– مضغ القات

يمثل القات كنباتٍ يمضغه مجموع الشعب بصورة يومية يشترك فيها الجميع رجالا ونساء وأطفالا من أبرز العادات الخاصة جدا والتي يتميز بها عمن سواه من الشعوب رغم إجماع الكثيرين على رفضه لهذه العادة كسبب للإسراف أو ضياع الوقت أو الأثر الصحي الناجم عنها، ولكن الخلاص منها ليس بالأمر السهل وقد أصبحت عادة يومية ملازمة للأفراح والأحزان والعمل والسمر وهى من العادات التي تحتاج إلى وعى كبير وقوانين مشددة لحصارها ثم التخلص منها.

– دفن الموتى

يستقبل اليمانيون– رغم رقة قلوبهم – الموت بهدوء وثبات غريبين يثيران الدهشة عند من لا يعرفهم من الشعوب الأخرى، فما أن تحدث الوفاة ويتم الإعلان عنها بالأذان فى غير وقته كما لاحظت فى بعض القرى اليمنية التي عملت فيها، لحظتها يتطوع بعض الأشخاص بشق لحد فى المقبرة يتسع لجسم الميت ويبطن من جوانبه بحجارة مقصوصة ترتكز عليها حجارة أفقية تغطى الجثة بعد وضعها فى اللحد ثم يعود المشيعون جميعا من المقبرة إلى منزل الميت لتناول طعام خاص يعد لهذه المناسبة لتبدأ بعد تناوله جلسة قراءة القرآن على روح الميت دون أن تسمع نواحا أو ترى حزنا باديا على الوجوه فى حالة تسليم جميلة بالقدر الإلهي .

– الرقص الشعبي

يعتبر الرقص الشعبي أو البرع كما يسمونه إحدى سمات الشخصية اليمنية حالة تعبيرها عن فرحتها بشيء ما ويشترك فيه الكبار والصغار بلا استثناء فى حلقات تتبارى فى إظهار قدرتها على الإمساك بالموروث الشعبي المتمثل فى أداء رقصات معينة بصحبة الجنابي التي تكون لازمة للقيام بها وسط جو مثير للجميع، وقد تصاحب حالة الرقص موسيقى شعبية من عود أو طبلة وقد يتم الأمر بدونها فى أي مكان ببساطة شديدة.

– الزى الرسمي

يتميز اليمانيون باعتزازهم بالزي الشعبي الذى يشبه إلى حد كبير الزى الشعبي للهنود والذى يتكون من ثلاثة قطع رئيسية هي القميص والجاكت وقطعة قماش كبيرة تلف بطرق معتادة على النصف الأسفل لجسد الرجل أما النساء فتعتبر العباءات وغطاء الرأس والوجه ملابسها الشعبية التي تتسم بالكثير من الأناقة والاحتشام.

– الأطعمة الشعبية

تمثل اللحوم بأنواعها الحمراء والبيضاء أساسا للوجبات الشعبية اليمنية ثم تأتى عليها وجبات السلتة وهى وجبة تصنع بطريقة معينة من طحين الحلبة مضافا إليها المرق مع الأرز والسلطة الخضراء والعصيدة المصنوعة من القمح والخبز المصنوع على شكل رقائق يتم تجهيزها مع كل وجبة.

– السلام على الجماعة

من عادات اليمانيين عند السلام على الجماعة فى مجالس المقيل التي يلتقون فيها إلقاء السلام على الجمع دون مصافحة فيما يعرف بسلام التحية.

– الحشد للانتخابات

فـى حالـة وجـود انتخابـات نيابيـة يكتفـى المرشـح اليمنـى بنزولـه إلى الشـارع فـى حشـد مـن أتباعـه ليتبعـه مـن يناصرونـه أو يقتنعـون به ليطـوف شـوارع المدينـة الرئيسـية فـى منطقتـه مـبرزا قوتـه الاجتماعيـة الـتي يعتمـد عليهـا كأسـاس للوصـول إلى مقعـد البرلـان ولا تلعـب الدعايـة بـكل أنواعهاالمسـموعة والمرئيـة والمقـروءة دورا كبـيرا فـى هـذا الأمـر اعتمـادا علـى وعـى الجماعـة الشـعبية وثقتهـا فـى المرشـحين.

إب .. مدينة الروعة

بعد مرور عام كامل قضيته فى صنعاء متشبثا بالأمل ورافضا للعودة مهزوما منكسرا إلى وطني ومتنقلا بين أعمال كثيرة قمت بها للحصول على المال اللازم لمواصلة الإصرار على انتظار فرصة عمل كريمة تحقق لي بعض طموحاتي جاءت الفرصة المنتظرة وأعلنت وزارة التربية فى صنعاء عن حاجتها لمعلمين للمرحلتين الإعدادية والثانوية فى كل المواد الدراسية، كنت قد قرأت هذا الإعلان فى مبنى وزارة التربية قبل موعد الاختبارات المقررة للمعلمين بأسبوع واحد ففرحت فرحا عظيما وقررت أن أستعيد خلال هذا الأسبوع كل ما دراسته من معلومات مركزا على القواعد النحوية وطرق التدريس وطرق التربية الحديثة إضافة إلى الإلمام ببعض أساسيات علم التجويد حيث إنني علمت أنها مقررة فى المنهج اليمنى وتوقعت أن تأتى بعض الأسئلة منها فى المقابلة التي يتحدد على أساسها استلام عقد العمل من عدمه .

فى يوم الاختبار فوجئنا بمقابلات فردية، حيث يدخل المعلم الراغب فى التعاقد إلى حجرة مخصصة ليواجه عدة أشخاص يطرحون عليه أسئلة عديدة فى المادة التي يرغب فى تدريسها و الثقافة العامة وطرق التدريس وغيرها.

ولأن العدد المطلوب كان ثلاثين مدرسا فقط من جملة المتقدمين التي تربو على أربعمائة شخص فقد أدت اللجنة دورها فى تصفيتهم بشكل جيد فأكثرت من الأسئلة لتعم حالة استياء كبيرة بين المدرسين الذين لم يوفقوا فى الإجابة عن الأسئلة بشكل جيد، لكن الأمل فى نفسى لم يضعف لثقتي الشديدة فى أجوبتي غير أنني كنت أنتظر كلمة القدر فى إبرام التعاقد مع التربية رغم ما سمعناه عن وجود وساطات ورشوة فى اختيار المعلمين من قبل بعض مسؤولي التربية ممن يمتلكون زمام الأمور وبشكل غير معلن غالبا ما يكون فى مقاه خارجية بعيدا عن مبنى وزارة التربية.

لم أزل أذكر تلك اللحظة البعيدة عندما استمعت إلى اسمى كأحد من حالفهم الحظ بالعمل فى التربية بعد طول انتظار ولم أنس رئيس اللجنة وهو يسلمني عقد العمل بابتسامة جميلة ويشد على يدى و يجذبني إليه ممازحا فى مودة قائلا :

— لقد وجهتك للعمل فى محافظتي (إب) .. اللواء الأخضر تستحقك يا جميل. وعليك التوجه غدا لاستلام عملك هناك بعد توزيعك من مكتب تربية (إب).

كنت قد سمعت عن (إب) خلال تواجدي فى صنعاء دون أن أعرف عنها أي معلومة سوى أنها محافظة خضراء .

فى صباح اليوم التالي ودعت بعض أصدقائي فى شارع حدة حاملا حقيبة ثقيلة بها أغراضي وكتبي متوجها إلى موقف سيارات صنعاء (الفرزة) ورحت اسال عن السيارات المتجهة إلى (إب) فاستقبلني سائق شاب وأشار لي على سيارة لا يوجد بها

أحد فجلست فيها أنتظر وأستعيد أحداث عام كامل من المتاعب قضيته فى صنعاء التي أحببتها رغم كل هذه المعاناة، تذكرت أيام عملي كبائع حلوى فى محل كبير بشارع (حدة)، وأياما أخرى ضمن لجنة الإشراف على العمل فى حديقة السبعين الترفيهية والتي كانت فى بداية إنشائها متخيلا وجه صاحبها النحيل الأسمر الحاج عبد الله والذى ترك لي ولفريق العمل المصري كل صلاحيات إدارة الحديقة وتنسيقها وتطويرها لتكتظ خلال أسابيع قليلة بزوارها من الكبار والصغار ولتحقق أرباحا لم يتوقعها الرجل نفسه مما جعله يدعونا إلى طعام خاص لنا فى بيته بحميمية كبيرة وفرحة عظيمة، وتخيلت وجهه وهو يودعني مساء الأمس لأذهب إلى (إب) فى عملي الجديد الذى أعتز به كثيرا، خواطر كثيرة مرت فى ذهني وأنا فى الفرزة أنتظر تحرك السيارة إلى مدينة لا أعرف عنها شيئا سوى اسمها. أخيرا تحركت السيارة مغادرة لصنعاء، وحولي تتحرك الصور إلى الخلف وكأنها تسافر إليها مشتاقة بلا خوف.

فى السيارة بدأ الركاب يمضغون القات من أكياس بلاستيكية يضعونها أمامهم وهم يتحدثون عن الغلاء الذى بدا يتسرب إلى حياتهم بسفور وأنا أنظر اليهم بدهشة ولا أعرف عن القات غير اسمه ولا أستطيع إبداء رأيي فى واقع تنتابهم همومه، بينما رحت اصيخ سمعي لصوت منطلق من مذياع السيارة للمطرب اليمنى الشهير (أيوب طارش) الذى أستمع إلى إبداعات عوده بطرب كبير دون أن أفهم الكثير من كلمات الأغنية، فقط حالة شجن غريبة تتسلل إلى داخلي فأحِن إلى قرية هناك في صعيد مصر بها أسرتي وأحبابي.

كانت محطة وقوفنا الأولى فى رحلة السفر إلى (إب) والتي عرفت أنها تستغرق أكثر من أربع ساعات فى مدينة ذمار وتحديدا فى أحد مطاعمها الكامنة على الطريق العام لتناول الغداء ثم صلاة الظهر.

بعد أن التهمت نصف دجاجة مشوية مع قليل من الأرز والسلطة انتبهت إلى أنني فقدت حقيبتي التي بها جواز سفري وعقد العمل وبقية أوراقي وأغراضي في السيارة التى كنت أستقلها وغابت عني ملامحها بين السيارات الكثيرة الواقفة أمام المطعم، فوقفت حائرا لدقائق لا أدرى ماذا أصنع ولا كيف أتصرف حتى جاء أحد الركاب وطلب منى أن أذهب إلى السيارة التي اتخذ لها صاحبها مكانا متواريا خلف المطعم، فحمدت الله وأنا أتحسس حقيبتي غير مصدق، ثم أخبرني هذا الرجل أننا سنظل قليلا ليعود باقي الركاب إلى السيارة بعد أن يقوموا بشراء بعض مطالبهم.

عندما انطلقت بنا السيارة نحو (إب) مفارقة لذمار، لاح أمامنا جبل شاهق سألت عن اسمه فعرفت أنه(نقيل سمارة) أحد شواهق اليمن بعد جبل النبي شعيب وجبل برد وربما بعد جبال ريمة.

هنا تخلت السيارة فى خشوع وإجلال عن سرعتها وبدت لي كحية واهنة تسعى لارتقاء جبل ضخم فى طريق حلزوني يدور حول الجبل ليبدو الوادي ببيوته المبعثرة على قمم صغيرة من تحتنا جميلا ومبهرا وخطيرا لنصل بعد أكثر من ساعة إلى قمة سمارة الذى يستخف بحملنا على رأسه كشيء لا يذكر وقد بدا لنا كعملاق لم نر أعظم منه ضخامة يضع أقدامه هناك فى أودية بعيدة لا نكاد نراها بينما يظل رأسه مناطحا لسحاب كثيف راح يتكاثر حولنا فى حالة إنذار لسقوط مطر .

ورويدا رويدا بدأنا نقترب من الأرض ونشعر بالأمن يتسلل إلى دواخلنا التي جفت خوفا وقلقا من هول السقوط من هذا الارتفاع الرهيب .

وكعروس زينها المطر بدت لي (إب)، تلك المدينة المعلقة على قمة جبل قليل الارتفاع تكسوه خضرة رائعة تتخللها بيوت حجرية بديعة الصنع وطرقات صغيرة بين صاعدة وهابطة...

هنا(إب) ... همست بها لنفسي وأنا أغادر السيارة لأسير خطواتي الأولى بلا دليل باحثا عن فندق لأنام فيه ليلتي بعد إنهاء أوراقي فى تربية (إب).

بعد حجز غرفة صغيرة بالفندق حاولت الذهاب إلى مكتب التربية، ولكن الأمطار الغزيرة كان لها رأى آخر فوقفت فى الشرفة الزجاجية أراقب حركة الناس والسيارات فى جو أشبه بليل جميل تلمع فيه مصابيح السيارات التي لا تتوقف رغم غزارة مطر يركض في الشوارع كنهر .

بعد أقل من ساعة توقف المطر وأضاءت المدينة من جديد و بدت مغسولة نقية خفيفة الهواء فذهبت إلى التربية وأنهيت بعد جهد خطاب توجهي إلى مدرستي .. السلام ذي عرم .

فى مساء يوم الوصول كنت أجلس فى منتزه (خليج سرت) والذى أقامته الجماهيرية الليبية بالمدينة فى حالة مؤاخاة بين مدينتي (إب) و(سرت) ..موجها وجهى فى حالة استمتاع كبير صوب جبال بعدان الشاهقة وقد اختلطت أضواء منازلها بنجوم السماء وأنا عاجز تماما عن التفريق بينهما ..

— يا الله ...أي روعة تكمن فى هذه المدينة!

مشيناها خطى

أثناء وجودي بمنتزه (خليج سرت) فى مدينة (إب) شاردا فى جمال البيئة المحيطة بي مستمتعا بوحدة اضطرارية بحكم عدم معرفتي بأحد فى المدينة، فى أول يوم أصل فيه إليها انتبهت إلى وجود شخصيات من جنسيات عربية مختلفة فى المكان فى مجموعات صغيرة متناثرة فوق مقاعد الحديقة وعلى أرضيتها العشبية الجميلة فى حالة تشبه إلى حد كبير الجزر المعزولة، كنت راغبا إلى حد كبير إلى معرفة من يفتح لي أبواب المدينة التي بدت لي مغلقة كجميلة تدلل، واحتراما لخصوصية الآخرين لم أشأ أن أقتحم بهجتهم كضيف ثقيل، فرحت أشغل نفسى بمطالعة صحيفة فى يدى إلى أن رأيت شخصين يمزحان ويمران بالقرب منى أنست روحي بلهجتهم الصعيدية فتشبثت بهما كفريق وسلمت عليهما وكانت المفاجأة أنهما من مدينة فرشوط التي تبتعد مسافة قليلة من محل إقامتي فى مصر، وأنهما يعملان بالتدريس فى المعاهد العلمية فى (إب) والتي تشبه إلى حد كبير المعاهد الأزهرية فى مصر. تعارفنا بسرعة وعرفا منى أنني قد حجزت غرفة فى أحد الفنادق وأنني قادم للعمل فى يومي

الأول، فأصرا على اصطحابي معهما إلى شقتهما الكائنة بشارع تعز أحد أشهر شوارع (إب) والمؤدى إلى محافظة تعز المجاورة، فذهبت معهما راضيا سعيدا لوجود من سيسامرني ويدلني إلى جهة عملي المرسل إليها. فى شقة واسعة بالطابق الأرضي تعرفت على بقية الزملاء فأصبح عددنا فى السهرة أحد عشر شخصا بدت تباينات شخصياتهم واضحة من بداية الجلسة ما بين هدوء وثقافة ومرح وقبول وحميمية، ولأول مرة بعد خروجي من مصر قبل عام أستمتع بوجبة كشرى جيدة الصنع، والكشري وجبة شعبية واسعة الانتشار فى مصر مكونة من المكرونة والأرز والحمص والعدس مضافا إليها عصير الطماطم بالبهارات، حقيقة كانت الوجبة رائعة بعد شوق بالنسبة لي وكان ما صاحبها أثناء تناولها من مزاح وحديث أكثر روعة لدرجة أنني تناسيت ارتباطي بالفندق الذى حجزت فيه.

عندما عدت إليه متأخرا فوجئت ببابه الحديدي مغلقا فرحت أطرقه مرارا دون جدوى، الجميع يغطون فى نوم عميق وأنا خارج الفندق فى شارع بلا مارة، لم أكن أتوقع أن أهل هذه المدينة لا يسهرون مثلنا فى مصر، ولم أتوقع أن ينام موظف الفندق قبل وصول كل من حجزوا للمبيت عنده، وهنا اضطررت للعودة إلى شقة الزملاء المصريين مرة أخرى فوجدتها لم تزل صاخبة بمن فيها فحمدت الله وأخبرتهم بما حدث فتنازل أحدهم لي عن سريره فى كرم كبير وأمام إصراري الكبير تم توفير فراش لي فرشته على أرضية الصالة لأنال قسطا من الراحة بعد متاعب يوم مختلف سطرته الأقدار فى حياتي.

فـى الصبـاح اتجهـت إلى فـرزة إب قاصـدا ذي عـرم (بفتـح العـين) حيـث توجـد بهـا مدرسـتي، فلـم أجـد سـيارة ولكـن أحـد الأشـخاص أرشـدني إلى رجـل مـن قريـة ذي عـرم لـه محـل تجـارى فـى (إب) فتوجهـت إليـه وسـألته عـن كيفيـة الوصـول إلـي قريتـه فأخبرنـي أنـه سـيعود إليهـا بعـد صـلاة العصـر وليـس مـن وسـيلة أخـرى سـواه، فامتثلـت لأمـره في ضيـق لينقلـني إلى القريـة لعـدم وجـود سـيارات أجـرة تربـط بـين القـرى والمدينـة كمـا اعتدنـا فـى مصـر، وكان علـى ان انتظـر للموعـد المحـدد متسـكعا وحيـدا فـى شـوارع المدينـة، وهـذا نـوع مـن المتعـة الروحيـة الـتي يمارسـها الإنسـان كحالـة تأمل لإدراك أسـرار حيـاة جديـدة تصبـو لهـا نفـس تواقـة للمعرفـة باسـتمرار، من شـارع إلى شـارع تكتشـف أشـياء عديـدة فـى حيـاة النـاس و علاقتهـم بالواقـع، فـى أحـد الشـوارع أوقفتـني عجـوز يمانيـة أخفـت عنـى وجههـا كمـا تفعـل أمـي فـى صعيـد مصـر عنـد مقابلـة كل غريـب، سـألتني:

— من أنت؟

أجبتها بعد أن ألقيت عليها السلام:

— معلم مصري .

هزت رأسها بطيبة ودعت لي بالتوفيق.

بـين الظهـر والعصـر كنـت في أحـد المسـاجد أسـتمتع في خشـوع بحلقـة قرآنيـة يرتـل شـيوخها بعـض السـور بصـوت جماعـي فـى لهجـة محببـة تؤنـس الـروح و تتسـلل إلى داخلـي باطمئنـان غريـب .

على رفوف مكتبة المسجد قرأت عناوين بعض كتب الشيخ عبدالمجيد الزندانى الذى يحظى بشهرة كبيرة بين علماء الدين اليمنين غير أنني لم أشغل نفسى بغير القرآن فى هذا اليوم راجيا أن يكون لي سبب قبول وبركة فيما أسعى إليه.

بعد صلاة العصر ذهبت إلى الرجل الذى سيحملني بسيارته إلى مقصدي، وبالفعل ذهبت معه فى سيارته الجيب الأمريكية بعد أن شحنها بمواد بترولية ومواد غذائية ليأخذها معه إلى قريته هناك على إحدى قمم جبال بعدان الشامخة.

فى الطريق أدار الرجل معي حوارا طويلا عن مصر والحياة فيها مركزا على عادات الصعيد ومغايرتها للحياة المدنية المتحررة فى المدن، كانت الصورة فى رأسه عن مصر ناتجة عن سماعه للإعلام المصري ومسلسلاته التي تستحوذ على مساحة كبيرة فى التليفزيون اليمنى، ولم تكن هذه الصورة بطبيعة الحال منصفة لحقيقة حياتنا فى مصر فرحت أصحح له صورا كثيرة بدت مقلوبة أو غير واضحة، غير أننا اختلفنا فى الموقف المصري من حرب الكويت واستطعت إقناعه بعد جهد كبير أن ما يحدث في البلاد العربية مدبر بليل ضد مصلحة الجميع وأن علاقة الشعوب ببعضها البعض ستستمر رغم كل ما يحدث من خلافات فى الإطار السياسي بين مقاعد وشخصيات قابلة لتغييرها فى أي وقت، كان الرجل يستمع إلى كلامي بإنصات شديد وهو يقود سيارته بمهارة و الوقت يقترب من الغروب بسرعة كبيرة.

حين وصلنا إلى القرية بعد أكثر من ساعتين أوقف سيارته أمام مبنى صغير لم أتوقع ان يكون هو مدرسة القرية ثم نادى :

— يا أستاذ محمد .

لم يكن محمد إلا أحد المدرسين المصريين العاملين بالمدرسة الذي حضر لاستقبالنا بترحاب كبير ثم حمل كيسا من السيارة إلى داخل المبنى توقعت أن يكون به بعض الأشياء التي لا تتوفر فى القرية جلبها إليه الرجل، عندما قرأ الأستاذ محمد خطاب التربية تغيرت ملامح وجهه ثم هرش فروة رأسه الكثيفة وأخبرني أنني قد وصلت إلى هذا المكان عن طريق الخطأ لأن هذه القرية تسمى ذو هرم وليست ذو عرم المقصودة، ابتسمت فى بلاهة وتساءلت فى حيرة:

— أبعد كل هذا العناء؟

هدأ الرجل من توتري و قادني إلى داخل مسكنه فى المدرسة بينما انصرف السائق بعد أن أخبرني أنه عائد إلي (إب) فجر اليوم التالي. فى داخل المسكن المدرسي حياة بسيطة تشبه حياة الزهاد ممن يكتفون فى حياتهم بالضرورات ولا شيء للتسلية أو التفريج عن النفس سوى مصحف قديم، وراديو صغير مبحوح الصوت لا يؤدى وظيفته بكفاءة بين الجبال العالية والأمطار الغزيرة.

تعرفت على الأستاذ محمد وتحدثنا طويلا فى أشياء كثيرة عرفت منه أنه لا يغادر القرية إلا فى أوقات الضرورة وأنه يعمل بمفرده فى المدرسة منذ عامين وأن أعداد التلاميذ قليلة نسبيا وأنهم لا يحضرون بكثافة لعدم ارتباط حضورهم بنجاحهم آخر

العام وأن منهم من تزوج فى سن صغيرة فأصبح راعيا لأسرته ولا وقت لديه لتحصيل العلم إلا كلما سمحت ظروفه بذلك.

كنت أشعر فى قرارة نفسى بحالة من عدم التوفيق غير أن هذا الرجل ببساطته ومزاحه التلقائي خفف عنى هذه المشاعر فاعتبرتها مجرد ليلة عابرة خارج الحسابات ستمر على خير لأعود إلى إب لأستأنف طريقي إلى ذي عرم من جديد بعد أن أتأكد من السائق أننا نسير فى الطريق الصحيح هذه المرة حتى لا أقع فى الحفرة الواحدة مرتين .

هنا ذو عرم

لم أنم غير ساعتين فقط قبل أن يطرق بابنا الرجل الذى حملني بسيارته في الليلة السابقة إلى ذي هرم، استيقظت متعبا إلا أن رغبتي فى العودة إلى (إب) كانت كفيلة بشحن طاقتي بما يكفى، كان الجو فى ذي هرم وقت الفجر رائعا، ثمة أضواء واهنة يشتد عزمها شيئا فشيئا من جانب الجبل فتضئ المكان وتقذف بعتمته إلى مجاهل لانراها. كنت قد تناولت فنجانا من قشر البن اليمنى المغلي صنعه لي الأستاذ محمد كبديل للشاي الذى طلبته منه فاعتذر لي عن عدم وجوده، بينما كان الرجل اليماني خارج المبنى ينتظر فى قلق وهو يستعجلني، ودعت الأستاذ شاكرا له كرم ضيافته طالبا منه أن نلتقى فى (إب) حال نزوله إليها.

فى طريق العودة كنت أشعر أنني كمن ينزل من سماء عالية، الطريق غير ممهد وضيق للغاية، إرتفاع الجبل يتيح لي رؤية صور بانورامية للوديان الخضراء والقمم المطلة عليها والشلالات الطبيعية التي يفيض ماؤها مندفعا إلى الأودية السفلى بشكل مبهر .

سألني الرجل وهو يشعل تبغته كمدخن قديم:

— كيف الحال ؟

أجبته بتسليم كبير:

– الحمد لله على كل حال.

شعرت أنه يريد أن يخرجني من شرودي الذى سرقني منه لبعض الوقت، لم يكن يعلم أنني أستمتع إلى حد كبير باكتشاف مناطق لم يكن لي أن أراها لولا مشيئة الله تعالى.

فراح يسألني عن نظام القبائل وعاداتها وتقاليدها فى صعيد مصر وهل هي مماثلة للقبائل اليمنية فى الترابط والعلاقات .

شعرت أن أسئلته الذكية تفتح لي أبواب حديث واسعة جديرة بالتأمل والمعرفة فسرى فى داخلي شعور بالارتياح له وأجبته :

– إن القبائل فى مصر تكاد تفقد صورتها المعروفة فى دول كثيرة لتماهيها منذ سنوات عديدة فى المجتمع المدني الذى يغزو أي تجمع سكاني بعد طفرات علمية كبيرة و تلاقح ثقافات عديدة بين الناس خلال أسفارهم واحتكاكهم بالعالم الخارجي الذى يسقط صورة القبيلة كعقد تنتظم فيه جماعة معينة لا تربطها سوى أواصر القربى، إضافة إلى أن هذه النظرة الضيقة لم تعد محل اعتزاز للكثيرين لأن هناك أمور كثيرة تزاحمها بقوة فى عالم مفتوح تتغير فيه المفاهيم والأفكار بسرعة عالية .

كان الرجل يهرش رأسه كثيرا كمن يقوم بتحليل كلماتي حسب رؤيته محاولا الاقتناع بها أو الرد على ما لا يروقه منها، لحظتها لم أجد ما يسعفني لإقناعه سوى الاسترشاد ببعض الأدلة الدينية التي تعيد الإنسان إلى أصله الترابي كعنصر تكوين أولي وأن عظمة الإنسان فى الدنيا تكمن فى مقدار نفعيته للناس والمجتمع في

حياتـه الدنيويـة أمـا فـى الآخـرة فتكمـن فـى درجـة تقـواه للّه تعـالى فـى رحلـة اختبـاره القصـيرة علـى الأرض ولا مجـال لتفاضـل آخـر يجـب أن يكـون بـين النـاس.

هـز الرجـل رأسـه كمـن يوافقـني فحمـدت اللّه أن وجـدت مـن يؤمـن بقناعاتـي أو يقتنـع بصحتها.

فى إب افترقنا أنا والرجل على وعد باللقاء.

مـن جديـد بـدأت أبحـث عـن سـيارة تنقلـني إلى ذي عـرم الـتي لا أعـرف لهـا اتجاهـا فوفقـني اللّه إلى رجـل قـال لـي أنـه مـن قريـة قريبـة مـن ذي عـرم فوافقـت علـى السـفر معـه آمـلا فـى الوصـول إليهـا فـى وضـح النهـار .

انطلقـت بنـا السـيارة فـى اتجـاه ناحيـة العديـن فـى طريـق مسـتوية إلى حـد كبـير عكـس طريـق بعـدان الصاعـدة الهابطـة ولأن السـيارة كانـت مكتظـة بالـركاب هـذه المـرة أصبحـت أسـتمع إلى حديـث الـركاب باهتمـام كبـير متأمـلا لغتهـم القريبـة جـدا مـن الفصحـى عـدا نحـت وتحويـر قليلـين يميـلان باللغـة إلى اللهجـة الدارجـة الـتي لم أفهـم بعضهـا بحكـم عـدم احتكاكـي المباشـر مـع النـاس.

حـين وصـل الرجـل إلى قريتـه سـلمته أجرتـه فأشـار لـي إلى اتجـاه ذي عـرم الـتي أحـاول الوصـول إليهـا. فـى شـق بـين جبلـين كنـت أسـير يدفعـني إلى الإمـام دفعـا انخفـاض الطريـق أمامـي حامـلا حقيبتي الثقيلـة أفكـر فـى شـيخ القريـة الـذى سيسـتلم منـى خطـاب التربيـة ليسـلمني عملـي فـى المدرسـة .

فـى الطريـق لاحظـت ثعابـين بيضـاء رفيعـة تنـام على صخـور كبيرة الحجـم فـى أكثـر مـن مـكان، الغريـب أن هـذه الثعابـين كانـت كمـن يأخـذ حمـام شمـس بأريحيـة كبـيرة ودون أن تشـعر بمـرورى بجوارهـا غـير فزعـة منـه، إلا أنـني كنـت فـى فـزع شـديد منهـا وأنـا أغامـر فـى التوغـل وحيـدا فـى هـذا الطريـق وقـد اختفـت البيـوت القليلـة الـتي نـزل فيهـا سـائق السيارة مـن خلفـي وأنـا أتقـدم صـوب المدرسـة فـى حـذر شـديد متلفتـا تحـتي وخلفـي وثمـة هاجـس يطاردنـي بـأن مفاجـأة غـير سـارة سـتحدث لـي، فرحـت أقـرأ بعـض سـور القـرآن راجيـا أن يحفظـني الله مـن شـرور خلقـه أجمعـين.

عندمـا لاحـت لـي بيـوت القريـة مـن بعيـد متواريـة فـى غابـة شـجرية كثيفـة شـعرت وكأنـني قـد أصبحـت بطـلا وصـل الـي نقطـة انتصـار بعـد جهـد كبـير .

صادفـت علـى مدخـل القريـة طفـلا صغـيرا فسـلمت عليـه ثـم سـألته عـن منـزل الشـيخ فاسـتغربني، بعـد لحظـات أشـار لـي علـى منـزل جميـل معلـق علـى قمـة صغـيرة فطلبـت منـه أن يخـبر الشـيخ بحضـوري فاختفـى بـين بيتـين لم أعـرف فـى أيهمـا دخـل فلـم أجـد بـدا مـن الذهـاب إلى منـزل الشـيخ وطرقـه بنفسـي .

بعـد لحظـات خـرج لمقابلـتي شـاب فـى العقـد الثالـث مـن عمـره فسـألته عـن الشـيخ وأوضحـت لـه سـبب حضـوري فأخبرنـي أنـه الشـيخ وأنـه مـن سـيقوم بعمـل كل شـيء، ثـم طلـب منـى الدخـول إلى بيتـه لتنـاول الغـداء معـه فدخلـت شـاكرا لله إذ أنـني وصلـت لمكانـي الصحيـح هـذه المـرة.

كان استقبال الشيخ لي طيبا للغاية وكان معي كريما كعادة كل اليمانيين فما إن دخلت إلى الغرفة الواسعة التي يجلس بها حتى أحضر الطعام المكون من اللحم المسلوق والسلتة المصنوعة من طحين الحلبة والعصيدة المصنوعة من طحين القمح والسحاوق المصنوعة من عصير الطماطم مع الشطة الحارة والثوم ومعه خبز يشبه إلى حد كبير الفطائر التي نصنعها فى صعيد مصر، حقيقة استمعت بوجبة دسمة خفيفة على المعدة وقد ساعدتني روح هذا الشيخ الشاب إلى تناول الطعام بأريحية كمن يأكل فى بيته وبين أهله.

بعد الغداء قدم لنا الرجل القهوة اليمانية وهى غير القهوة التركية التي اعتدناها لسنوات فى مصر، ثم تركني الرجل فى الغرفة وحيدا وخرج لحاجة فرحت أتأمل بندقية آلية مصلوبة على الجدار ومسدسا موضوعا بجوار مجلسه وصورة عتيقة لشيخ مسن مواجهة لنافذة قريبة من الأرض تتمكن وأنت جالس بجوارها من رؤية الخارج باتساعه الجميل.

بعد دقائق عاد الرجل حاملا حزمة كبيرة من القات ليقول بزهو أنه أحضرها من حقله المجاور لمنزله وأنها من أجود أنواع القات وأنه غسلها من (البمبة) وهى ماكينة لجلب الماء من باطن الأرض وقت توقف المطر الذى يستمر لأكثر من تسعة أشهر وفى حال توقفه يكون مضطرا لري القات الذى يتاجر فيه من هذه البمبة.

بعد إغراء كبير من الشيخ الشاب وضعت فى فمي أول عود قات غض ورحت أمضغه مقلدا الرجل مستعذبا مرارته التي بدأت تتناقص مع مرور الوقت وقد سرى فى جسدي خدر غريب أزال منى عناء الطريق ومتاعب قلة النوم فى الليلة السابقة.

فـى أثنـاء هـذه الجلسـة تحدثنـا كثـيرا أنـا والشـيخ وقصصـت لـه مـا حـدث معـي فـى اليومـين السـابقين وكيـف أننـي ذهبـت إلى ذي هـرم فـى بَعـدان علـى وجـه الخطـأ ومـا رأيتـه مـن ثعابـين فـى طريقـي إليـه فضحـك الرجـل كثـيرا لهـذه المفارقـة وأخبرنـي أن الثعابـين كثيرة جـدا فـى منطقتـه وأنهـا غـير سـامة وأنهـا تخـرج سـاعة سـقوط المطـر لتعتلـي الصخـور راغبـة فـى الـدفء .

في نهايـة الجلسـة طلـب مـني أن أنـام معـه فـى منزلـه علـى أن يجهـز لـي سـكن المدرسـة المغلـق منـذ انتهـاء العـام الدراسـي السـابق والـذى يفتقـد إلى وجـود موتـور لتوليـد الكهربـاء لأن القريـة لا كهربـاء فيهـا فرضخـت لإرادتـه أمـلا فـى نـوم عميـق بعـد أن أصبحـت فـى تخديـر كلـى مـن القـات الـذى تجـرأت علـى مضـغ كميـة كبـيرة منـه دون سـابق معرفـة .

خطوة أولى

فى صباح اليوم التالي استيقظت قبل الشروق، وظللت فى غرفة المقيل منتظرا للرجل الذى لم أجده فى فراشه بالغرفة، عرفت بعد رجوعه أنه ذهب للصلاة فى زاوية صغيرة بجوار منزله دون أن يوقظني، سألته عن اتجاه القبلة بعد أن توضأت من ماء قليل أحضره لي فى إناء ثم صليت وقرأت سورة الملك التي اعتدت قراءتها مع المعوذتين والإخلاص كل صباح، بعد تناول الإفطار المكون من الشفوت وهو يشبه إلى حد كبير الفتة باللبن ذهبنا معا إلى مبنى المدرسة المكون من ثلاث حجرات فقط من الحجر والأسمنت مضافا إليها حجرة واحدة لسكن المدرسين ملحقة بحمام بسيط، فى الحجرة مرتبتان من الإسفنج وعلى كل مرتبة وسادة وبطانية خفيفة وهما مفروشتان على الأرض المفروشة بغطاء بلاستيكي بلا أسِرة وفيها بعض مستلزمات إعداد الطعام مع بوتاجاز بشعلتين يرتكز على حجر ضخم، والمدرسة فى مكان خارج القرية ويمر أمامها طريق يؤدى لمجموعة قرى لا تتجاوز أكبرها بضع بيوت لا يكاد أحدها يجاور الآخر والقرى متناثرة على وجه الجبل تؤدى إليها طرق صغيرة للغاية وتلاميذ هذه القرى يجتمعون كل صباح فى هذه المدرسة دون التزام بموعد محدد لبدء اليوم الدراسي، إذ لا طابور صباحى ينتظم فيه التلاميذ ولا جرس

ينظم أوقات دخولهم وحصصهم وخروجهم ولا أنشطة يقومون بها أثناء تواجدهم،لا شيء يتم في المدرسة غير حضور هؤلاء التلاميذ لبعض الحصص برغبتهم الكاملة فإذا شاءوا الانصراف انصرفوا بلا إذن ولا يحزنون .

تعجبت كثيرا لوصول التعليم هناك إلى هذه الصورة من عدم الاهتمام والتسيب، وحزنت كثيرا لبلاد تنشد العلم والاستقرار والحرية دون أن تضع التعليم حجرا لبناء أي نهضة أو إنجاز، الحقيقة أن الدراسة فى صنعاء غير الدراسة فى القرى ويوجد فارق كبير بين اهتمام الدولة بالمدارس ومتابعتها وتوفير احتياجاتها والعناية بها ومدى إقبال التلاميذ عليها والتزامهم بالعملية التعليمية.

فى حوار طويل مع الشيخ الشاب الذى تولى مشيخة القرية أو مجموعة هذه القرى نيابة عن والده الراحل، ونظرا لحالته الاقتصادية المرتفعة نسبيا عن بقية أهل القرية والذى عرفت أنه لم يكمل تعليمه بعد المرحلة الابتدائية أخبرني أنه لا يقصر فى توفير طلبات المعلمين الذى يجلبهم إلى مدرسة القرية بالواسطة والرشوة دون أي اهتمام من التربية فى (إب) بأي نقص فى العدد أو التخصصات أو مواعيد إحضارهم إلى المدرسة، كانت الحقائق مؤلمة ومثيرة ومحيرة ولكنها الواقع الذى يجب مواجهته بأمانة وحزم لإيجاد حلول معقولة وممكنة لتغيير هذا الواقع الذى أرفضه فى داخلي بشدة كبيئة غير محفزة للعملية عند المعلمين أو الطلاب.

كان العام الدراسي قد بدأ منذ أسبوعين ولم يحضر أحد من التلاميذ انتظارا لوصول المعلمين وكذا لم تصل الكتب المدرسية إلى المدرسة لأن الشيخ الشاب لم يذهب إلى التربية خلال هذه الفترة ولم يهتم بعملية بدء العام الدراسي الذى أصبح فى نظره عملية آلية يقوم بها كعمل اجتماعي ورثه عن والده، ولأن أولياء أمور التلاميذ لم يجمعوا المبالغ الواجب توريدها للتربية والسيارة التي ستحمل الكتب إلى المدرسة إضافة إلى رشوة واجبة لمسؤول توزيع الكتب التي كانت تطبع وقتها فى مطابع الأهرام فى مصر وفى بعض الدول العربية ثم تشحن إلى اليمن قبل العام الدراسي بأسابيع قليلة وقد تتأخر بعض المطابع فى إنجاز الكتب المطلوبة فى الموعد المحدد لأى سبب فيكون ذلك على حساب التلاميذ ومستقبلهم وانتظامهم فى الدراسة.

كانت المهمة أمامي كبيرة للغاية ولها جوانب خارج حدود إرادتي وإمكانياتي غير أنني قررت فى داخلي أن أقوم بحل كل ما أستطيع من هذه المشكلات وكانت البداية بتجهيز سكن المدرسة وتنظيف الفناء الداخلي والفصول الثلاث ثم الإتفاق مع الشيخ الشاب بالذهاب إلى (إب) لمعرفة آخر أخبار وصول المعلمين والكتب فوعدني الرجل بفعل ذلك فى اليوم التالي ودون تأخير.

كان الوقت يمر بطيئا ثقيلا وانا أجلس القرفصاء وحيدا أمام المدرسة أتطلع حولي فلا أجد من يؤنسني أو يحادثني، تأخذني خواطر متمردة إلى بلاد بعيدة تركت فيها أهلا وأحبابا وحياة لا تكاد تجد فيها وقتا للراحة من أعمال كثيرة تشغلك فيها، الآن أنا لا أنظر فى ساعة يدى وكأن الوقت بلا قيمة يمر حتى الشيخ

الشاب تركني لبعض شؤونه ومضى دون أن يخبرني بأي ساعة سيعود وهو بالضرورة له عذر فيما شغله عني، ولكن هواجسي الملعونة لا تكاد تتركني أهنأ بحياة جديدة لم يكن استقبالها أو التعامل معها سهلا محفزا.

بعد الظهر بأكثر من ساعتين أرسل الشيخ الشاب رجلا مسنا ليدعوني للجلوس معه، كنت قد جهزت لنفسي كأسا من الشاي على الحطب و ابتلعت علبة كاملة من بسكويت (أبو ولد) الذى أحضرته معي قبل دعوة الشيخ، لهذا اكتفيت بالتخزين معه فى غرفة المقيل عازفا عما أراد أن يقدمه لي من طعام .

كان محور حديثنا عن المدرسة وكيف نهتم بها لتؤدي رسالتها العلمية بشكل أفضل، عرضت عليه عدة اقتراحات بسيطة تجعل التلاميذ يحبون المدرسة كوجود حصة يومية للرسم نوفر بعض أدواتها من (إب) وحصة للتربية الرياضية يمارس فيها التلاميذ أنشطتهم بحرية ويكون ذلك لحين حضور كل المعلمين بالإضافة إلى بقية الحصص التي سأقوم بتدريسها لكل تلاميذ المدرسة بعدالة ونظام يضمن لهم قطع المنهج دون تأخير.

وافقني الرجل بإعجاب فشعرت أنني استطعت شحذ حماسه للعمل بعد أن أخبرته أن أجره عند الله سيكون عظيما حال اهتمامه بطلاب العلم .

جلسة فى اب

فى طريق العودة إلى (إب) سلك بنا الشيخ الشاب طريقا آخر غير ذلك الطريق الضيق بين الجبلين والمليء بالثعابين والرهبة فرددت فى نفسى المثل الشهير «أهل مكة أدرى بشعابها».

كنت مع الشيخ فى سيارته الخاصة من ماركة تويوتا والتي يكثر استخدامها عند أهل القرى اليمنية كأنسب وسيلة تساعدهم على الإنتقال من مكان إلى آخر متحملة وعورة الطرق الجبلية ومتسعة لحمل الركاب وما يحتاجون إليه من أسواق المدينة وكنا فى طريقنا إلى (إب) لمتابعة مكتب التربية بشأن السؤال عن الكتب والمعلمين.

فى الطريق توقفنا فى أحد أسواق القرى، السوق صغير نسبيا وغير مزدحم يتصدره جزار يعلق الخراف الصغيرة المسلوخة على حبل قوى مشدود بين عمودين خشبيين ويصل عددها إلى أكثر من عشرة خراف متفاوتة الوزن ولكل واحد منها سعر مناسب له، وكل ما عليك هو اختيار ما يناسبك منها وإقراض الجزار الثمن ليقوم هو في نشاط بتقطيعه وتسليمه لك . وبجوار الجزار على بعد خطوات شيخ مُسن ذو لحية كثيفة مصبوغة بالحناء يبيع أنواع الأسلحة المختلفة بما فيها القنابل التي لم أجد من يجيبني عن كيفية دخولها للبلاد بهذه الكثافة ولا كيفية انتشارها بهذا

الشكل المفزع دون رقابة من الدولة على هذه الأسلحة الفتاكة. وهناك بائع الدجاج المشهور باسم الدجان وهو يباع حيا بلا ذبح ولا تنظيف، وفى طرف السوق باعة الملابس وأشياء أخرى كثيرة كالقات والتبغ والفاكهة والخضروات.

والتجارة عمل محبب وأصيل عند اليمنين ولا يتهيبون من المغامرة فيه بأي مال وهم مشهورون بذلك داخل اليمن وخارجه. لم يشتر الشيخ الشاب من السوق سوى أشياء قليلة وضعها فى كيس أسود ثم ألقى به فى صندوق السيارة لننطلق إلى ما خرجنا لطلبه. فى مدخل تربية (إب) إلتقى الشيخ الشاب برجل عرفت أنه مسؤول كبير بالمكتب وأنه من سينجز الأمور بيسر فاستبشر الشيخ الشاب بي وتبع الرجل الذى عرفت أن اسمه صالح إلى مكتبه بنشاط بينما وقفت أنا فى مدخل المكتب أقرأ بعض المنشورات المعلقة والتي تخص بعض تعليمات التربية وأوامرها. بعد وقت قصير خرج الشيخ الشاب مبتهجا فسرت معه إلى السيارة و اتجهنا إلى داخل (إب)، أخبرني الشيخ أن صالحا سيقوم بتوجيه مدرسين جدد غدا إلى المدرسة أما موضوع الكتب فعلينا أن ننتظر قدومها من صنعاء خلال أسبوع. فى شارع العدين لمحت أحد من كانوا معي فى شقة المصريين فى اليوم الأول لوصولي إلى (إب) فناديته وطلبت من الشيخ إيقاف السيارة للسلام عليه وبالفعل نزلت وقابلت الرجل الذى أصر على ذهابنا أنا والشيخ إلى الشقة التي يقيمون بها فأخبرت الشيخ فوافق راضيا. الشقة لم يكن بها سوى شخصين هما الأقرب عملا إلى (إب) إضافة إلى الرجل الذى كان معنا لنصبح خمسة أشخاص على مائدة الغداء

التـى تحتـوي وجبـة شـهية مـن اللحـم والأرز والبطاطـس والسـلطة. مازحـت الشـيخ الشـاب باعتـذار لطيـف عـن عـدم وجـود وجبـات شـعبية لدينـا فأبـدى الرجـل ارتياحـه للطعـام المصـري. بعد الغـداء كان لابـد مـن توفـير القـات للشـيخ ولأنـى لم أكـن قـد حصلـت علـى خـبرة الانتقـاء والشـراء بعـد فقـد أسـندت هـذه المهمـة لأحـد الأصدقـاء ليقـوم بهـا علـى أن أدفـع التكاليـف فوافـق راضيـا واتجـه للسـوق لإحضـار القـات بينمـا ظللـت أنـا والأصدقـاء مـع الشـيخ بعـد أن أعـددت لـه مجلسـا للقـات علـى الأرض حسـب العـادات المعروفـة . كانـت هـذه الشـقة مكونـة مـن ثـلاث غـرف وحمامـين ومطبـخ واسـع وصالـة مريحة تسـتغل غالبـا فـى أوقـات تنـاول الطعـام علـى فـراش أرضـى، أمـا الغرفـة الأولى المجـاورة لمدخـل الشـقة فيسـكنها شـخصان فقـط وغالبـا مـا يكـون أحدهمـا بمفـرده فيهـا لأن مـكان عملـه قريـب مـن مدينـة (إب) ولا يرغـب فـى الابتعـاد عـن المدينـة أمـا الآخـر فـلا يحضـر إلى المدينـة إلا علـى فـترات متباعـدة لعمـل شـيء هـام أو اسـتلام الراتـب أو البحـث عـن رسـائل فـى صناديـق مكتـب البريـد والـتي كانـت تؤجـر فيهـا صناديـق بريديـة صغـيرة الحجـم مصفوفـة بشـكل متناسـق فـى مبنـى البريـد لـمن يرغـب ولـمدة عـام ولـكل صنـدوق مفتـاح خـاص بـه يسـتلمه المتعاقـد بعـد إنهـاء أوراق العقـد داخـل المكتـب ومـن خـلال هـذا الصنـدوق يتـم اسـتقبال الرسـائل مـن الأهـل أو غيرهـم والـتي كانـت تدخـل بهجـة كبـيرة علـى مـن يعثـر فـى صندوقـه علـى رسـالة كانـت فـى هـذا الوقـت هـي الوسـيلة الوحيـدة للتواصـل إذ لم تكـن ثـورة الاتصـالات قـد انتشـرت فـى العـالم بعـد. ولهـذا كان هـذا الزميـل يسـتمتع بوحدتـه فـى خلـوة لا يسـمح للكثيريـن مـن الزمـلاء باقتحامهـا عليـه منشـغلا بهوايـات يمارسـها مـع ذاتـه باقتنـاع كبـير. أمـا الغرفـة

الثانيـة المتوسـطة ففيهـا أربعـة أشـخاص مـن مـدن مصريـة مختلفـة تجمـع بينهـم سمـات الهـدوء والوقـار والرزانـة كقاسـم مشـتركة وغالبـا مـا يكـون فيهـا أيضـا شـخص واحـد يطلـق فيهـا بخـوره ليعيـش في عـالم روحانـي يخصـه دون غـيره بعـد أن سـبق لـه أن يتعـرف علـى عجـوز يمنـى ليتعلـم منـه تحضـير الجـن وتسـخيره وصرفـه وهـو مـع ذلـك محافـظ علـى صلواتـه ولا تنسـى أصابعـه تحريـك حبات مسـبحته طـوال الوقـت تسـبيحا وتكبـيرا وحمـدا.

أمـا الغرفـة الثالثـة وهـى الأوسـع فقـد كانـت المـكان الـذى لا يخلـو مـن مـزاح ومـرح طـوال الوقـت وكان بهـا ثلاثـة أشـخاص لا تمـل مـن الجلـوس معهـم لحـلاوة أرواحهـم وخفـة ظلالهـم، وقـد كانـت هـذه الغرفـة هـي محـل وجـود التلفـاز والفيديـو إذ لم تكـن القنـوات الفضائية قـد انتشـرت وقتهـا بشـكل واسـع . فـى جلسـة القـات مـع الشـيخ الشـاب والأصدقـاء دار حـوار طويـل عـن أهميـة التعليـم فـى حيـاة الفرد والمجتمـع واهتمـام الـدول المتقدمـة به كركيزة أساسـية للنهضـة ضاربين أمثلـة بالقفـزات المبهـرة الـتي حققهـا العلمـاء فـى الـدول الغربيـة فـى ذات الوقـت الـذى أصبحنـا فيـه أمـة اقـرأ مجـرد مسـتهلكين لمنتجاتهـم وبأسـعار باهظـة نتيجـة إهمـال حكوماتنـا للبحـث العلمـي والعلمـاء والمبتكريـن وطـلاب العلـم والجامعـات والمـدارس متجاهلـة عـن عمـد أو جهالـة مـا حققتـه دول بـلا مـوارد كمواردنـا مـن إنجـازات رفعـت مكانهـا عاليـا فـى عـالم الاقتصـاد والسياسـة والمكانـة الدوليـة، حديـث ذو شـجون تتخللـه بعـض قفشـات أو نـكات مؤلـة يطلقهـا أحد الأصدقـاء سـاخرا مـن أحوالنـا نحـن العـرب. مـع مـرور الوقـت فـى المجلـس انتبهـت إلى عـدم تعجـل الشـيخ للعـودة إلى القريـة فسـألته:

– هل سنرجع الليلة للقرية؟ فأخبرني أننا سنبيت هذه الليلة فى (إب) ونعود لها غدا بعد أن نذهب مرة أخرى لمقابلة الأستاذ صالح فى مكتب التربية عسانا نجد أحدا من المدرسين الجدد نصحبه معنا إلى المدرسة .

فحمدت الله لأن العودة ليلا إلى القرية فى هذه الطرق الوعرة ليست آمنة العواقب.

بجوار التلفاز لاحظت وجود أشرطة فيديو كثيرة لأفلام مصرية كان الزملاء يستأجرونها من محلات بيع وتأجير أشرطة الفيديو المنتشرة فى (إب) رغبة فى الاستمتاع بمشاهدتها في أوقات فراغهم فقمت على الفور بفرزها واختيار فيلم عمر المختار الذى فرحت به كثيرا إذ كنت قد قرأت عنه ولم أشاهده راغبا فى معرفة تفاصيل حياة المناضل الليبي الكبير عمر المختار الذى قاوم احتلال بلاده بإخلاص ووفاء نادرين رغم شيخوخته و قلة الامكانيات وقوة الجيش الإيطالي المحتل وتطور أسلحته حتى أصبح المختار نموذجا وطنيا مثيرا للإعجاب والدهشة ومستحقا لأن يكون بجدارة ضمن عظماء المناضلين العرب الأحرار. كان الفيلم رائعا للغاية فهو من إخراج المخرج العظيم الواعي بقضايا وطنه مصطفى العقاد الذى ذاعت شهرته على أشعة الشمس فى كل مكان بعد هذا الفيلم وقد كانت قصة الفيلم منتزعة بواقعية كبيرة وصادقة من الحياة فى ليبيا وقت الإحتلال وبصورة مدهشة إضافة إلى الدور الرائع للممثل العالمي أنتوني كوين والذى شخص دور البطل عمر المختار ببراعة كبيرة تماثل فيها الشخصان فأصبح التفريق بين الحقيقة والخيال شيئا صعبا.

كنا جميعا مشدودين لمتابعة الأحداث لحظة بلحظة وكنت أتابع انبهار الشيخ وهو يتناول القات مركزا كنسر فى وقار واندهاش على الشاشة والتي كانت لحسن حظنا كبيرة وواضحة.

حتى إذا جاءت لحظة إعدام البطل عمر المختار أمسينا فى سكون تام وقد قاده الجنود المدججين بالسلاح إلى المقصلة وعلى وجهه تسليم كبير للقدر واعتزاز كبير بالذات، كان هذا فى حضور جموع شعبية غفيرة وكبار قادة الإحتلال الإيطالي فى ليبيا فى ذلك الوقت حتى إذا سقطت نظارته الطبية على الأرض قبل تنفيذ الإعدام بلحظات قليلة تخلص طفل صغير من أحضان أمه التي تكفكف دموعها بطرحتها السوداء ليصل إلى النظارة ويلتقطها ثم يلبسها كإشارة على مواصلة الأجيال القادمة للنضال ضد الإحتلال بنفس رؤية البطل المختار الذى ضحى بنفسه راضيا محتسبا فى سبيل كرامة وطنه وحمايته من قوى الشر التي لا تتورع عن النهب والقتل وإتلاف روعة الحياة فى العالم تحت مزاعم ليس لها من الحق أو العدل أو الإنسانية أي مبرر مقبول.

هل أنت قبيلي ؟

كان لهذا السؤال لحظة سماعه للمرة الأولى اندهاشه عظيمة أثارت فى نفسى شوقا كبيرا لمعرفة النظام الاجتماعي للشعب اليمنى الذى لم أستطع فهم أي شيء عن تركيبته الاجتماعية خلال وجودي فى صنعاء نظرا لأن صورة القبيلة أو مفهومها الدقيق لا يتجلى واضحا فى المدن بقدر وضوحهما فى القرى، ونظرا لأن الجماعة البشرية فى المدن الكبرى أكثر اهتماما بملاحقة مطالب حياة سريعة متلاحقة ولاهتمام هذه الجماعة نفسها بقضايا إنسانية متعددة تشغلها عن البقاء أسيرة داخل نطاق فكرى ضيق ينحصر فى البحث عن ماهية ذات لم تتحقق سعادة وجودها فى الواقع الفعلي . يعتز اليمانيون بتركيب نظامهم الاجتماعي بالشكل القبلي اعتزاز المفاخرة، وهو نظام هرمى تخضع فيه القبائل بنسب متفاوتة وخاصة فى شمال البلاد لمشيخة القبائل اليمنية حسب علاقتها بإدارة المشيخة واستفادتها منها ومدى حاجتها إليها. وللمشيخة صيت واسع فى البلاد رغم انحصار دورها فى فض النزاعات التي تنشأ حول دم أو أرض كما تقوم المشيخة بتعيين بعض القيادات التي تختارها فى بعض المناطق لحسابات تلائم توجهاتها السياسية والتي تكون غالبا تابعة للنظام السياسي للدولة داعمة لسياستها فى السيطرة على القبائل الكبيرة العدد

خاصة بعيدا عن اهتمامات الجماهير اليمنية الغفيرة المحرومة من توفير كافة الاحتياجات الضرورية للحياة الكريمة ليظل الحرمان من توفير المياه النقية والطاقة الكهربائية والمستشفيات العامة والمواصلات وغيرها من الخدمات سمة أساسية للقرى اليمنية وكأنها فى حالة تجاهل مقصود من حكوماتها المتعاقبة لتهميش هذه القرى خارج اهتمامها كحكومات مسؤولة عن حياة الناس فيها . لهذا كان على المواطنين البسطاء توفير احتياجاتهم الضرورية بجهودهم الخاصة وبقدر إمكانياتهم المتاحة. إن المجتمعات المدنية ومنذ أزمنة طويلة حاولت ارتقاء سلم حضارتها متخلية عن خضوعها لأى قيد يعيق سيرها نحو تحقيق وجودها الأفضل بما فى ذلك خضوعها لمفاهيم الجنس والنوع والمناطقية معتمدة على الاهتمام الكلى على منجزاتها العلمية التي تهيئ لها القدرة على امتلاك زمام حياتها وقيادتها نحو مستقبل أرحب وأفضل لأجيالها القادمة. نحن لسنا ضد القبلية الداعمة للفضيلة المحفزة على كل خير بل ضد الخضوع لها حينما تصبح نعرة شخصية أو عنصرية أو قناعة سلبية أو معوقا تنمويا لفرد أو جماعة .

إن النظرة العنصرية الضيقة تتعارض كلية مع المثل العليا للحياة الإنسانية وهى مرفوضة فى الأديان كافة والحقوق الإنسانية المتفق عليها دوليا وهى ضد كل تنمية يتوجب أن يشارك مجموع الشعب لتتحقق لمصلحة الجميع. من هنا يجب أن نشير إلى الفرص السانحة للمجتمع القبلي لتنمية حياته موظفا دور هذه القبائل توظيفا إيجابيا انطلاقا من رؤية مدروسة وأغراض جماعية ومحفزا لها على المساهمة العامة فى خدمة المجتمع ليكون مقياس تفاضل

القبائـل بمقـدار مـا تنجـزه مـن خـير . وعلـى مشـيخة القبائـل أن تسـتوعب احتياجـات الجماهـير وتلبـى هـذه الاحتياجـات كمشـروع نهضـة لامفـر مـن تحقيقـه للنهـوض بالبـلاد كمـا يتوجـب عليهـا أن تراجـع عاداتهـا وأفكارهـا فـى إصـلاح المجتمـع فتنبـذ كل قبيـح ضـار وتحمـى كل جميـل نافـع وهـى بذلـك فقـط تسـطيع أن تكـون ضمـن القـوى الفاعلـة لإخـراج المجتمـع مـن قبضـة مشـكلاته إلى رحابـة آمالـه المنشـودة .

أنا وأنت

عبد الله الوتيحى رجل يمنى فى العقد السادس من عمره، نحيف الجسيم قصير القامة، يتمتع بذكاء حاد، تصنف شخصيته ضمن الشخصيات الانفعالية سهلة الإثارة، عرفته عن قرب عندما كنت أعمل مدرسا فى مدرسة يديرها بحكم وضعه الاجتماعي فى منطقته وليس بحكم تأهله لهذه الوظيفة والتي تتطلب الحصول على مؤهل تربوي وخبرة فى الإدارة، وينتمي هذا الرجل اجتماعيا إلى السادة وينتهي نسبهم إلى آل البيت وهم أنصار الإمام أحمد الذى كان يحكم اليمن قبل قيام الثورة اليمنية على نظامه عام ١٩٦٢م كنتيجة لسوء حكمه الثيوقراطي المعظم لدور الحاكم ووضعه فى صورة ظل للإله على الأرض، فأوامره جميعها فى شأن إدارة البلاد والعباد مطاعة منفذة على علاتها إرضاء له ودون أدنى اعتراض من أبناء شعبه، فهو الحاكم المفوض للشعب من قبل السماء حسب زعمه وهو القاهر فوق عباده وهو الصالح الوحيد للجلوس على عرش البلاد وهو المنعم لمن ناصره المذل لمن خالفه، تلك هي الصورة الثيوقراطية التي عرفناها عن الإمام أحمد حاكم اليمن قبل الثورة، والتي كانت سببا ضمن أسباب جوهرية عديدة كنقص العدالة الاجتماعية فى المساواة بين شيعته السادة وأبناء القبائل المصنفين ضده وخارج إرادته وإن كانوا القسم الأكبر من

رعاياه، يحكى عن هذا الحاكم أنه كان يأخذ أبناء شيوخ القبائل الكبرى ويحتجزهم فى أماكن معينة وتحت ظروف إنسانية لاتليق بهم لإجبار أهلهم على الخضوع له، وقد سطر أحد الروائيين اليمنيين هذا العمل الإجرامي لهذا الحاكم فى رواية أسماها الرهينة كنت قد سعدت بالحصول عليها ذات صدفة في إحدى المكتبات، الرواية تؤرخ لفترة سابقة لسقوط الحكم الإمامي فاضحة لإحدى جرائمه مدافعة عن كرامة الإنسان وحقه فى حياة يأمن فيها على نفسه كذات حرة خلقها الله لتمارس دورها فى الحياة دون قهر أو إجبار لأي سلطة سوى سلطة الخالق العادل الذى وضع لعباده قانونا سماويا يصلح باستمرار لحكم لوضع الجماعة البشرية فى حياة طبيعية آمنة فكان الثواب والعقاب وكان افعل ولاتفعل وقبلهما كانت الرحمة والعفو والتجاوز عن كل الأعمال التي تصدر من هذا الإنسان تحت أي اضطرار، حقيقة كانت الرهينة فى ذلك الوقت من الأعمال الإبداعية التي أثارتني وشحنتني بأسئلة وجودية كثيرة عن علاقة المحكوم بحاكمه، و مدى احتياج كل منهما للعدل والذى هو أساس أي حكم وضرورة كل حياة ومبتغى كل مخلوق، وكان من مردود هذه الرواية أن جعلتني أجمع المعلومات حول حكم الأئمة لليمن قبل الثورة باحثا من وجهة نظر تخصني عن نسبية الصدق فى أحداث هذه الرواية التي صدمتني بأحداثها اللا معقولة، وكل هذا بعيدا عما تتمتع به من فنيات السرد ونسبة براعة الكاتب فى الإلمام بها أو توظيفها فى روايته والتي عرفت أنها أولى إنتاجه الأدبي، بالسؤال عرفت أن ما كان يحدث فى الواقع اليمنى أيام حكم الأئمة كان يحتاج إلى عشرات الروايات لفضحه إلا أن الواقع الأدبي اليمنى وقتها

لم يكن ثريا بأكثر من دماج واحد أو ربما أنا لم أحظ بكامل الحقيقة حول هذا الأمر. ورغم كل هذا السوء فى حكم الأئمة وما نتج عنه للدولة من فقر وقهر وتجويع وتخلف عن الركب الحضاري الإنساني لدولة وصف الرسول شعبها بالحكمة والإيمان تكريما لهم وقبله وصف الله تعالى حضارتها فى قصة سليمان عليه السلام بأنها كانت حضارة عظيمة أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم تتخذ من تشاور الحكم مع أهل الاختصاص منهجا لإقامة حكم قوى يواجه الأحداث بعقلانية وحكمة، فكيف جاء هذا الوتيحى وهو المفترض ابن حضارته العظيمة وكيف له أن يحدثني كلما التقيته عن تعظيمه لمن دفع بهذه الأمة العظيمة إلى هذه الصورة المؤلمة فى وقت كانت أصوات الحرية ترتفع خفاقة فى كل مكان داخل الوطن العربي وخارجه مطالبة بها حقا أصيلا لا تراجع عنه ولا سبيل للاستسلام عن الحصول عليه.

إن لب الأمر يكمن فى قضية النظر للآخر وإنكاره ومقاومته حال مطالبته بحقوقه، تلك النظرة التي لم تكن مقصورة على السيد الوتيحى بل كانت تشمل ملايين الأشخاص فى كل الدول العربية وربما فى العالم كله، إنها قضية عدم المساواة بين أبناء جنس واحد أصله واحد، تلك النظرة الدونية التي تراها بين شخص وشخص وبين قبيلة وقبيلة وبين منطقة وأخرى وبين دولة ودولة وبين تحالف دولي وآخر، إنها قضية الإنسان الذي يقاتل دفاعا عنها كل لحظة دون أن تتحقق إلا بنسبة ضئيلة فى الدول الأكثر تطورا وحياة ووعيا رغم وجود الأديان والهيئات والمنظمات التي يفوق عددها الحصر والمسماة بمنظومة حقوق الإنسان إضافة

إلى حزمة قوانين بشرية تختلف فى تطويرها بين دولة وأخرى وتقف عاجزة عن بث معنى المساواة فى نفوس الناس وإلزامهم الإيمان به كضرورة حياة لا تستقيم الحياة إلا بوجودها، إنه العدل اسم الله وصفته ورحمته مطلب كل مخلوق ومشتهى كل نفس، هذا الذى لا يتم تدريسه خارج المدرسة القرآنية التي جاءت بالنبي وأصحابه، فكان عمر بن الخطاب رمزه العصى عن التكرار والاستنساخ والتقليد.

إن جوهر القضية يكمن فى أنا وأنت ونسبة قبول كل منا للآخر ومدى قدرتنا للانطلاق نحو حياة إنسانية تليق بنا.

سعيد عبدالله

فى عصر يوم من الأيام وبينما كنت جالسا مع بعض الأصدقاء أمام مسكن المدرسة التي أعمل فيها وبعد جولة قمنا فيها بصعود إحدى القمم الجبلية المطلة على براح الوادي الفسيح المحيط بالقرية حضر إلينا رجل طويل القامة نحيف للغاية تزين وجهه ابتسامة طيبة ويبدو من مظهره اقتناعه بالفوضى كلازمة حياة يؤمن بها.

سلم علينا ببشاشة واضحة وصوت خافت ثم وضع حقيبته الجلدية الصغيرة جوارنا ليجلس معنا على الأرض العشبية كمن يستريح من سفر طويل.

بعد لحظات تعرفنا على الرجل،فإذا هو معلم صومالي قادم لتدريس اللغة الإنجليزية فى نفس المدرسة التي أعمل فيها. شعرت بارتياح كبير لقدومه فقد أصبح معي الآن من يؤنس وحدتي فى المسكن المدرسي الذي كنت قد قضيت أسبوعين فيه بلا أنيس سوى بعض الكتب التي أحضرتها معي وبعض الأصدقاء اليمنين الذين يسكنون في قرى قريبة من المدرسة . بعد أن تناولنا العشاء حدثني الأستاذ سعيد عبدالله عن نفسه كثيرا فى لغة عربية ركيكة للغاية لا أكاد أفهمها إلا بصعوبة كبيرة، كثيرا ما كان يتحدث معي بالإنجليزية التي لا أفهمها فأشير له

بعدم الفهم ليستدرك حديثه بالعربية معتذرا بلطف .كلمني الرجل عن أوضاع بلاده التي كانت متردية جدا فى ذلك الوقت بسبب حروب شرسة تدور رحاها بين فصائل عديدة متصارعة على سلطة البلاد. كما أخبرني عما ترتب عن استمرار هذه الحروب الداخلية من قتل ونهب وتهجير للملايين من الصوماليين للبلاد المجاورة فرارا من لهيبها الذى لا يفرق بين بشر وحجر. ونظرا لقرب المسافة بين الصومال واليمن فقد كان لليمن أن يتحمل الكثير من أضرار هذه الأزمة والتي تمثلت فى وصول عدد الصوماليين اللاجئين للأرض اليمنية لأكثر من مليوني لاجئ يحتاجون إلى الكثير من الرعاية والخدمات وفرص العمل التي لم تكن موجودة لأبناء اليمن أنفسهم، ولتتحول أزمة اللاجئين الصوماليين فى اليمن إلى كارثة إنسانية دون أن يهتم بها أحد في أطراف العالم المشغول بقضايا لا حصر لها فى هذا الوقت. والأغرب من كل هذا طريقة وصول هذا الرجل إلى الأرض اليمنية بواسطة قارب صغير لم يجد وسيلة سواه للهرب من الجحيم فى بلاده. وعند وصوله إلى اليمن فوجئ بضرورة وجود ما يثبت شخصيته ليتم تعاقده مع وزارة التربية ليعمل بهذه الوظيفة وبعد تعب كبير تمكن من توفير بعض الأوراق فكان له ما تمنى. كان هذا الرجل هادئا رزينا قليل النوم والطعام كثير الشرود والصمت لا يكاد يتحدث معي إلا إذا سألته أو مازحته. وكان له العذر فى ذلك فقد قتل الكثيرون من عائلته فى الحرب و دمرت الحرب الكثير من منازلهم . لهذا كنت أشفق على حالته كثيرا وأحاول إخراجه منها كلما رأيت الحزن باديا على وجهه وقد ساعدني فى ذلك حبه لرقعة الشطرنج التي رآها صدفة بين أشيائي فرحنا نقطع بها الأوقات

الكبيرة الفارغة فى تحد ومتعة أنستنا الكثير من همومنا التي تباغتنا أحيانا بوجه قبيح. كانت رقعة الشطرنج تمثل لنا ساحة واسعة وواقعية لصراعات كثيرة تدور فى وطننا العربي تضحى فيه الشعوب تحت أي فكرة أو مطلب بالكثير من شبابها ومواردها واستقرارها لتغيير وجه الملك أو تجميل صورته أو المحافظة على حياته من هجوم محتمل .

ضيافة .. وحوار

ذات يـوم مـن الأيـام حضـر إلينـا فـى المدرسـة طفـل لا يتجـاوز عمـره الثانيـة عشـرة، ليدعونـا لحضـور حفـل زواجـه، كان ابنـا لشـيخ قبيلـة ذاع صيتهـا فـى المنطقـة الـتي توجـد بهـا المدرسـة الـتي أعمـل فيهـا، غـير أنـني لم أهتـم بالأمـر كثـيرا لأنـني كنـت لا أزال حديـث عهـد بالمنطقـة وأهلهـا ولم تكـن لـي معهـم أي صداقـات تشـجعني علـى التواصـل معهـم خاصـة وأنـني لاأحفـل كثـيرا بمثـل هـذه المناسـبات إلا فـى حـدود ضيقـة وعنـد مـن أشـعر بأنهـم يهتمـون بـي، تلـك رواسـخ عـادات تربينـا عليهـا بـين أهلنـا فـى صعيـد مصـر ولا نسـتطيع الفـكاك منهـا أو التنـازل عنهـا. بعـد إنتهـاء اليـوم الدراسـي رحت أجهـز الغداء لأتناولـه ثـم أنـام كعادتـي اليوميـة. لم يكـن معـي فـى سـكن المدرسـة سـوى معلـم واحـد مـن إحـدى الـدول العربيـة وهـو رجـل كبـير السـن يؤثـر الوحـدة والانطـواء فـى وقـت أندفـع أنـا فيـه إلى رحـاب الحيـاة اندفـاع شـاب بـلا توجـس أو قيـود، لهـذا كان كل منـا يعـد لنفسـه مـا يشـتهى مـن طعـام مسـتقلا عـن الآخـر فـى غرفـة تخصـه وكنـت أتـرك لـه أدوات الطبـخ إذا كان مسـتعجلا، فـإذا أنجـز عملـه صنعـت لنفسـي مـا أحـب . فـى نفـس اليـوم رأيـت زميلـي وهـو يعلـق قطـع اللحـم

الصغيرة جدا فى خيط طويل شده بين شجرة و حائط المدرسة ليكون معرضا لحرارة شمس بدت ضعيفة جدا. عندما سألته عما يفعل أخبرني أنه يقوم بتجفيف اللحم حتى إذا تم جفافه فإنه سيقوم بطحنه ليصنع منه وجبة يحبها . تعجبت من الأمر وطول إنتظار الرجل لتحقيق هذه الرغبة، شعرت أنه لم يجهز لنفسه طعاما فدعوته لتناول الطعام معي إلا أنه رفض ذلك وانصرف . بعد وقت بحثت عنه فلم أعرف إلى أي مكان ذهب. لم أكن أعرف وقتها مكان قرية الشيخ الذى وجه إلينا الدعوة لحضور حفل زواج ابنه فوقفت أمام سكن المدرسة أنتظر من يرشدني إليها. كان الوقت بطيئا يمر كقاطرة ثقيلة على جسدي الخاضع تماما لذاكرة تحتشد فيها ذكريات مؤلمة استسلمت لها فى حالة لاإرادية غريبة ربما تكون الغربة أحد أسبابها. بعد ساعة حضر الشيخ بسيارته وعاتبني على تأخري فاعتذرت له لعدم معرفتي بقريته فأخبرني أن زميلي قد ذهب إلى هناك منذ مدة وعندما علم بعدم ذهابي حضر بنفسه ليصحبني إلى بيته. شكرت الشيخ وذهبت معه وأنا أفكر فى زميلي وتصرفه الذى سبب لي إحراجا كبيرا، فى الوقت نفسه شعرت باحترام كبير لهذا الرجل الذى تجشم عناء توصيلي من المدرسة إلى بيته بعد أن ترك كل شيء من أجل إكرامي. فى الطريق المنحدر إلى قرية الشيخ سمحت لنا الظروف بالتعرف على القرى المجاورة.أحسست مع الرجل بارتباط فكري فى عدة نقاط ترتبط بواقع التعليم وأهميته الكبيرة فى النهضة والتقدم. عندما وصلنا كان بيت الشيخ يكتظ بضيوف كثيرين من القرية والقرى المجاورة . بطيبة شديدة وكرم كبير قادني الرجل

إلى حيث يجلس فى صدر المكان ثم أحضر طعاما كثيرا لي ولمن تأخروا مثلى فى الوصول إلى المكان. بعد تناول الطعام جلست بجوار الشيخ الذى رحب بي بصورة مبهرة ثم قدم لي حزمة كبيرة من القات لأشاركه عملية التخزين وهو عملية يقوم فيها الإنسان بمضغ أوراق القات دون أن يقوم بابتلاعها ليسرى فى جسده خدر غريب يتزايد مع الوقت . رأيت فى المجلس ابن الشيخ والذى سيتم زواجه فى هذه الليلة وقد طوق جيده ورأسه بعقدين غليظين من الفل الناصع البياض وقد ارتدى ثوبا أبيضا و جاكتا أسود وقد أحاط وسطه بحزام عريض مزخرف فى وسطه خنجر معقوف يعرف باسم الجنبية. كنت مندهشا بفرحة الحضور وأحاديثهم المختلطة فى سعادة ومرح إلا أن الشيخ بدا لي أكثر وقارا وهدوء. حين عرف الشيخ أنني من صعيد مصر راح يسألني باهتمام: – هل تحب الزعيم جمال عبدالناصر؟ وهل تعرف أحدا من عائلته؟ فأجبته: نعم أحبه ولكنى لا أعرف أحدا من أهله لأنه من محافظة غير محافظتي. كان الشيخ محبا لناصر لدرجة فاقت تصوري فدار بيننا حوار طويل حول الفترة الناصرية وما أحدثته من تغيرات فى مصر وخارجها كانت سببا لاستعداء الدول الكبرى على الأمة العربية مناصرة للوجود الإسرائيلي الذى تحول فى بلادنا إلى عدو استراتيجي يزداد خطره يوما بعد يوم . كنت أتكلم عن ناصر الإنسان الذى يصيب ويخطئ وعن الناصرية كفكرة قومية تطورت فى الستينات لدرجة كبيرة فاتسعت رقعة أنصارها داخل المنطقة العربية وخارجها وكان كل ما ذكرته هو حصاد قراءات وأحاديث سمعتها من شخصيات مثقفة وواعية

للحياة السياسية فى بلادي. وكنت وقتها متحمسا تماما لفكرة القومية كحل لترابط الأمة العربية فى التصدي للتحولات العالمية التي انهارت فيها الشيوعية أحد القطبين الكبيرين فى الصراع العالمي الذى لا يكاد يتوقف لحظة عن خدمة أهدافه السياسية والاقتصادية والعسكرية على حساب الشعوب الضعيفة العاجزة عن إدارة حياتها بطرق ديمقراطية وتنموية تخدم البلاد العربية وتحافظ عليها من السقوط تحت سيطرة أي قوى استعمارية لا هم لها سوى استنزاف خيراتها واستعباد شعوبها المنفصلة لأسباب كثيرة عن قياداتها التي لا تستوعب أحلام ومطالب الجماهير . كان خدر القات يمنحني قدرة غريبة على الحوار الذى أصبحت أحد طرفيه وأصبح كل من فى المجلس فى الطرف الآخر يسأل ويحاور ويعقب ويفتح نوافذا عديدة للحوار.

كان الحديث عن الفترة الناصرية بمالها وما عليها هادئا رزينا يكفى ليتكلم واحدنا ليسمعه الباقون باهتمام فيما يمثل اتفاقا فكريا بيننا لنخلص في النهاية إلى محبة غريبة من الناس لهذا القائد الذى وضعه التاريخ لا الناس كشخصية رمزية فى القيادة وإلتحام الجماهير معه ضد إرادات كثيرة لم يرق لها تحرر العرب أو نهوضهم أو ظهور صوتهم كما حدث فى عدم الانحياز أو غيرها من التحالفات العالمية المقاومة لتدخلات القوى الاستعمارية فى شئون الدول الضعيفة طمعا فى السيطرة عليها وانتزاع مواردها التي خصها الله بها . حين عرج بنا الحديث عن الفترة الساداتية كان الانقسام واضحا وعنيفا والأصوات تعلو وتهبط حسب حالة النقاش وحدته. كان الجميع يؤكدون عظمة انتصار أكتوبر التي

اعترف بها اليهود قبل غيرهم من أحلاف الشر كهزيمة قلبت موازين القوى العالمية وغيرت خارطتها و أحبطت مشروع الصهاينة فى دولة تضم يهود العالم بين النيل والفرات . لم ينكر أحد عظمة هذا المنجز للسادات إنما كان الخلاف حول كامب ديفيد التي قسمت العرب إلى مؤيد ومعارض لها والتي اعتبرها الكثيرون تنازلا عن حقوق عربية ما كان يجب التنازل عنها إضافة إلى عزلة مصر وقتها وهى قلب العالم العربي وعقله بتكون جهة الرفض ضدها من دول عربية لم توافقها التوجهات السياسية وقتها مع عجز الجامعة العربية أثناء نقلها إلى تونس وبعدها فى جمع شمل العرب وتوحيد كلمتهم مرة أخرى . اكتشفت أثناء الحوار الذى استمر لأكثر من أربع ساعات أن الكتابات المتعددة والتي شكلت وعي بعض من كانوا في المجلس لم تكن منصفة تماما شأنها فى ذلك شأن الكتابات التي تُظهر طرفا من الحقيقة وتخفي أطرافا أخرى ربما لعدم حرص المؤرخين لتاريخنا العربي على توجيه القراء لاتجاهات يريدونها أو ربما لأنها لم تكن كافية لرسم صورة واضحة لكل فترة من هذه الفترات واضعة فى اعتبارها المؤثرات الداعمة والمقاومة لكل منها . فى معرض الحديث عن الرئيس مبارك والتي كانت قائمة فعليا وقتها لاحظت عزوف الكثيرين عن سياسته الخارجية التي انكفات على نفسها فى السنوات العشر الأولى من حكمه اهتماما بالوضع الداخلي الذى شهد انتعاشة إقتصادية فى مصر رغم ميل الحكومة إلى الاتجاه الرأسمالي لمواكبة الاتجاهات العالمية وقتها متخلية عن توفير احتياجات الجماهير التي بدأت فى عصر السادات وباركتها سياسة مبارك رغم توفير

مظلة اجتماعية للفقراء لم تستطع لاحتجاجاتهم فى حياة كريمة توفرها الدولة لرعاياها . فى طريق العودة كنت أحاول تحليل الآراء حول الرؤساء الثلاثة من منطلق الرأي الجمعي لنا لاستخلاص حكما منطقيا يرضى قناعاتي تجاه أثر الحاكم فى حياة شعبه غير أنني كنت أؤمن فى داخلي بحكم التاريخ فهو وحده وبحيادية كاملة من يستطيع أن يرسم الصورة الكاملة لمن يشاء فيسقط من يشاء ويخلد من يشاء فى ذاكرة الجماهير محبة وتقديرا .

مغامرة مع القرود

للطبيعة فى اليمن سحر خاص لا يكتشفه إلا من تدربت حواسه على اكتشاف أسرار الجمال ومواطنه. تلك حقيقة أدركتها أثناء مكوثي وانتقالاتي فى القرى اليمنية وبينها فاعتبرت فترة وجودي فيها رحلة للتأمل والاستمتاع ؛لذلك كنت أنتهز الفرص كلما سمحت الظروف للخروج إلى رحاب هذه الطبيعة الساحرة والتجول فيها سواء كنت منفردا أو مع بعض الأصدقاء للبحث عن أجوبة لأسئلة تدور فى ذهني عن هذه المنطقة التي وصفت قديما بأنها أرض الجنتين .

إن الطبيعة الجبلية الخلابة لليمن كان من الممكن أن تكون كعبة سياحية عالمية لهواة رحلات السفاري التي يهرب فيها الناس من زحام المدن بصراخها ودخانها إلى فضاءات أكثر هدوء ونقاء لتمنحه اتزانا نفسيا لازما وتأملا جميلا للذات والطبيعة والحياة بوجه عام.

ذات رحلة إلى صديق مصري بإحدى القرى أخبرني أنه يستعد لمغادرة هذه القرية التي تم إرساله للعمل فى مدرستها، كانت القرية على رأس جبل شامخ لدرجة أن السحاب كان يغطى هامتها كعمامة بيضاء على رأس رجل وقور، وكانت مكونة من بيوت قليلة للغاية ودكان صغير هو المكان الوحيد الذى يقضى فيه وقت فراغه مع صاحبه العجوز.

فإذا جن الليل يعود صديقي إلى سكن مدرسته الذى يخلو ممن يؤنسه .

ولم يكن ذلك هو السبب الذى دفعه لمحاولة تغيير مكان عمله، ولكن السبب الأصيل لظهور هذه الرغبة كان ما قصَّه لي حول وجود مجموعة كبيرة من القرود بظهر الجبل تقوم بمهاجمة القرية أحيانا وتخريب ما فيها من حقول وقد تصدى أهل القرية لها عدة مرات وفي كل مرة تهاجم جماعة القرود القرية تترك خلفها ذعرا و خرابا، كان الأمر بالنسبة له مأساة كبيرة وبالنسبة لي فرصة لمشاهدة القرود عن كثب لتأمل أشكالها وأحجامها و تصرفاتها فى لحظات نادرة قد لا تسمح لي الحياة بها مرة أخرى؛ لهذا طلبت منه أن نقوم معا بهذه المغامرة لكنه رفض الفكرة بشدة خوفا من تعرضنا لأى مكروه غير أنني وبإصرار كبير أخبرته أنني سأذهب إلى المكان بمفردي، فأقترح أن يكون معنا صديق له من أهل القرية فوافقته سعيدا.

فى صباح اليوم الثاني – وكان يوم جمعة – استدعى صديقي صديقه اليمنى الذى حضر إلينا حاملا بندقيته الآلية وذهبنا إلى منطقة القرود التي كانت تتخفى فى كهوف عديدة حفرتها الرياح فى جسم الجبل بأشكال وأحجام مختلفة وفى منطقة شديدة الإنحدار يصعب الوصول إليها.

لم نشاهد ساعتها سوى عدد قليل من صغار القردة التي بدت سعيدة باعتدال الجو وروعة الصباح فراحت تمارس قفزاتها ولعبها بصورة مدهشة دون أن تهتم بوجودنا أو تخشاه.

حدثني الشاب اليمني أن هذه القرود تكون أكثر شراسة إذا ماهاجمها أحد أو لحق بها ضرر وأن هجماتها تكون غالبا في أوقات الليل وأنها لا تهاجم إلا في مجموعات كبيرة وأن لديها قدرة عالية على القفز على البيوت وإزعاج من فيها.

حقيقة كنت أحاول اكتشاف هذه الطبيعة الغنية بحيوانات وطيور ونباتات لم يسبق لي أن رأيتها من قبل حتى هذه الثعابين البيضاء تماما والتي لم أرها حتى في الكتب المعنية بالحيوانات، إنها نوعية نادرة من الثعابين التي أثارت دهشتي عندما رأيتها.

لحظتها أعطاني المرافق اليمني سلاحه وقفز على الثعبان كنسر ماهر ثم راح يضربه برجليه ذات الحذاء الخشن حتى قتله بينما كنت وصديقي نتعجب من هذه الطريقة الغريبة في قتل الثعابين.

إن تنمية اليمن سياحيا تحتاج إلى خطة مدروسة تتضافر فيها الجهود الحكومية والشعبية لتحول هذه المنطقة الغنية بمواردها المختلفة إلى مقصد سياحي عالمي يدر الكثير من الأموال وينزع عن هذا المكان المشهور بحضارته العريقة منذ فجر التاريخ أثواب عزلة قاسية ألبسته له ظروف وحكومات لم تع أهمية استثمار ما حبا به الله هذه الطبيعة من روعة لا تتوفر في دول كثيرة استطاعت أن تجذب إليها أنظار هواة السياحة من كل أقطار الدنيا.

نافذة الحلم

لم يكن يتوقع وهو شاب مغترب أن يحبها كل هذا الحب الذى ملك عليه مشاعره و جوارحه دون أن يفكر للحظة واحدة في منطقية هذا الحب وقابليته للتحقق بزواج يسعده بمن أحب.

وقتها كان يسكن فى شقة بالطابق الأرضي مع مجموعة كبيرة من رفاق الغربة ممن يعملون بالتدريس فى الجمهورية اليمنية، كان هو الأصغر سنا وكانوا هم قد سبقوه إلى اليمن بسنوات عديدة.

كان للغرفة التي يقيم فيها مع شخصين آخرين نافذة مغلقة طوال الوقت دون أن يعرف سببا لذلك . عندما حاول أن يفتحها ذات صباح زجره أحدهما بقوة لكى لا يفتحها لكنه غافله وفتحها أملا فى تجديد هواء الغرفة.

لحظتها فقط تغيرت حياته من حالة إلى حالة بقدرية غريبة.

كانت الفتاة الجميلة تقطف ثمرات التين من أشجار حديقة منزلها دون أن تنتبه لمن يتأمل جمالها الفتان بلا إرادية كاملة.

بدت فى عينيه حلما جميلا بقامتها المشوقة كرمح وشعرها الأسود الطويل وبياض بشرتها المشرب بحمرة محببة.

حين انصرفت إلى داخل بيتها لم يكن سوى ولى بلغت روحه النقية حالة النشوة والارتواء بعد طول ظمأ.

ثمة شيء لا يدرك كنهه يعبث بمشاعره، يخطف روحه، يسيطر على تفكيره سيطرة كبيرة جعلت أصحابه يسخرون من كثرة شروده وتغير تصرفاته التي كانت أكثر رشدا واتزانا قبل دقائق قليلة،حتى عندما قاموا بتجهيز الطعام واجتمعوا عليه لم يجد فى نفسه الرغبة لشيء سوى الاستسلام التام لبهجة الحالة التي يعيشها دون أن يعرف من أصدقائه شيئا عنها.

فى مساء نفس اليوم كانت النافذة المواجهة لنافذته تضئ وتنطفئ بصورة متكررة لتلفت انتباهه، ثمة خيال بعيد يقف خلف زجاج النافذة التي أخفت معظمها أغصان شجرة شاردة.

بصعوبة راح يحدق فى النافذة غير مصدق لما وسوس به شيطان أحلامه من خواطر سرت فى جسده كسعادة غريبة .

– أحقا هي..؟

كان يدرك فى قرارة نفسه أن الحب حالة جنونية يعجز العقل عن فهمها أو تفسير كنهها وكان على يقين تام بأن كل حكماء العالم وعبر عصوره الطويلة تحيروا فى أمر هذه المشاعر التي تنبثق فى النفس البشرية كعين ماء صافية لتحول وجودها من جدب موحش إلى حياة خضراء شهية الثمار طيبة المنظر والرائحة هذه المشاعر التي كانت سببا فى الملايين من قصائد الشعر والقصص ولوحات الرسم و المؤلفات المطولة المحللة لكنهها الغريب المعجز و المعبرة عن نتائجها حال حدوثها بصدق شديد، وكم سطَّر التاريخ

مـن صفحـات لعشـاق فعلـوا الأعاجيـب وتنازلـوا عـن عـروش و غـزوا بـلادا وممالـكا مـن أجـل إرضـاء مـن أحبـوا، ولـما العجـب وقـد أشـار الله سـبحانه وتعـالى إليـه فـى سـورة يوسـف وغيرهـا مـن السـور.

شـرود عجيـب طويـل لـف رأسـه فأخرجـه مـن واقعـه المـؤلم إلى رحـاب عـالم فوقـى خيالـي سـاحر ومبهـج يتمنـى أن يتحقـق فـى لحظـة تـأذن السـماء بهـا. بمشـاعر لهفـة كبـيرة لـوح لهـا فـى الهـواء وكمـن يعيـش بـين صحـوة وإغفـاءة رأى يدهـا تشـير لـه بالقبـول.

يـا الله كـم هـو سـعيد هـذه الليلـة؟! وكأي نبتـة صغـيرة تجـد عنايـة بهـا وتتوفـر لهـا عوامـل حياتهـا نمـت شـجرة حبـه فـى صـدره حتـى بلغـت قوتهـا الـتي تسـتطيع بهـا أن تعلـن عـن وجودهـا دون خـوف مـن أي ريـح. وكان لابـد للعاشـق المفتـون أن يطـرق أبـواب الحبيبـة بصـورة شـرعية بحثـا عـن إجابـات لأسـئلة كثـيرة أرهقـت ذهنـه تفكـيرا ودراسـة.

إن لحظـة مواجهـة أي قـرار مصـيري تحتـاج منـا إلى شـجاعة واحتمـال وتوقعـات لـكل العواقـب.

هكـذا كان يُحـدث نفسـه بعـد أن خـاض جـدلا طويـلا مـع رفاقـه الذيـن اختلفـوا فـى الأمـر وحولـه.

الكثـيرون منهـم كان مقتنعـا برأيـه فـى عـدم تحقـق هـذا الحلـم الـذى اعتـبروه حالـة مـن جنـون تلبسـت صاحبهـا، والقليلـون منهـم لم يـروا مانعـا مـن إكمـال المشـوار ربمـا تزهـر أشـجار الأمـل فـى طريـق الحيـاة الـذى يمتلـئ بالمفاجـآت.

فـى عشـية يـوم لا تُنسـى تفاصيـل أحداثـه الكبـيرة والصغـيرة اصطحـب معـه شـخصين قريبـين إلى نفسـه وذهبـوا جميعـا إلى منـزل والدهـا بعـد أن حـددوا معـه موعـدا للقـاء. كان أبوهـا طيبـا وجميـلا فـى مقابلتهـم ترحيبـا وحديثـا وبشاشـة.

حـين تم عـرض الأمـر علـى والدهـا سـاد صمـت لبضـع دقائـق أدار الرجـل خلالهـا فـى رأسـه المطلـب المرتجـى علـى كل أوجهـه.

بعدهـا جـاء رفـض الرجـل صريحـا قاسـيا مغلفـا باعتـذار لا يُـبرئ مـن جـرح قلبـه وضـاع حلمـه.

ثمـة قضايـا كبـيرة وقفـت أمـام الجميـع كحـدود عصيـة علـى عبورهـا لإتمـام حلـم الـزواج الـذى تمنـاه. لحظتهـا فقـط أدرك أن كل مـا رآه لم يكـن سـوى صـرح شـامخ مـن خيـال موغـل فـى حيـاة قاسـية لا تؤمـن إلا بواقعيتهـا الفجـة ودون أي اعتبـارات للإنسـان.

– يا الله كم كانت قاسية هذه التجربة حد الوجع ! !

الطريق إلى صعدة

اتجهت فى إحدى الإجازات إلى صنعاء لمقابلة صديق مصري من قريتي تعرفت عليه بالصدفة فى صنعاء وكان له فضل كبير علىّ فى الأيام الأولى لوصولي إليها فقد وفر لي إقامة طيبة فى شقته التي كان يستأجرها فى شارع (حدة) ونظرا لمعرفته بإخوتي ووالدي فقد أكرم وفادتي وكان حريصا على رعايتي قولا وفعلا؛ لهذا احتل مكانة كبيرة فى نفسى تقديرا واعتزازا فانتهزت فرصة الإجازة لزيارته والاطمئنان عليه، غير أنني لم أجده فى مسكنه وعرفت من بعض الأشخاص أنه يعمل فى صعدة، تلك المحافظة اليمنية الواقعة فى أقصى شمال البلاد مع المملكة العربية السعودية.

بعد يومين استرحت فيهما من عناء السفر و تسكعت فيهما بنشوة غريبة فى شوارع صنعاء القديمة وأزقتها مستمتعا بجمال عمارتها وسحرها الخاص الذى تتميز به، قررت الذهاب إلى صعدة.

كنت قد حصلت على اسم مدرسة هذا الصديق ومكانها المعروف باسم واسط وهو مكان على الطريق الواصل بين صنعاء وصعدة. فى صباح يوم جمعة حملت حقيبة صغيرة بها بعض ملابسي

وحاجاتي ووقفت على الطريق منتظرا لسيارة تقلني إلى صعدة.

لم أكن وقتها أعرف مكان الفرزة التي سأستقل منها سيارة إلى صعدة كما يفعل العارفون بالبلاد، و لأن توفيق الله هو خير صاحب في السفر أكرمني الله برجل تبدو عليه ملامح الثراء والوجاهة يقود سيارة نيسان ضخمة توقف بها بجواري وأشار لي فذهبت إليه متوقعا أن يسألني عن شيء. بترحاب كبير سألني:

— مصري؟

فأجبته باستغراب:

— نعم

سألني:

— وين تروح؟

فأخبرته أنني أنتظر سيارة تقلني إلى صعدة.

بتواضع شديد فتح باب السيارة الأمامي وطلب مني الركوب بعد أن أخبرني أنه ذاهب إلى صعدة. تعجبت من تدبير القدر لهذا الأمر الذى نويت فى داخلي أن يكون زيارة لله أطمئن فيها على أحوال شخص أحببته لكرمه وأخلاقه الطيبة معي.

في الطريق إلى صعدة دار بيننا حوار طويل عن أحوال مصر وعاداتها وتقاليدها وتطور التعليم بها وغير ذلك من أمور حياتية كثيرة فاكتشفت أن الرجل على معرفة واسعة بحياتنا فى مصر وقد زال سبب تعجبي من ذلك بعد أن عرفت أن الرجل قد زار

مصر عدة مرات بحكم منصبه الذى توقعت أن يكون رتبة كبيرة فى الجيش أو منصبا رفيعا فى الحكومة اليمنية.

كانت ثقافة الرجل واتساع دائرة وعيه تفضح تكتمه غير المبرر لمنصبه، وكان ذكره لأمور فى مصر ولأسماء بعينها تتولى مناصب مهمة فى الصحافة والإعلام والثقافة ومجلس الشعب المصري يؤكد شكى فيما ذهبت إليه من مكانة مرموقة لهذا الرجل الذى أكرمني القدر بمعرفته فى لحظة فارقة. فى الطريق إلى صعدة مررنا بثلاث قرى تقع على الطريق مباشرة وهى خمر وحوث وريدة وكلها قرى مسكونة بأقلية يهودية تنغلق على عنصريتها وتتاجر فيما خف وزنه وغلا سعره من ذهب وفضة، ولأشخاصها ملابس تميزهم عن بقية أبناء الشعب وعلى وجه كل يهودي جديلتان من شعر تنزلان غالبا لأسفل وجهه.

فى هذه القرى رفض هذا الرجل مطلبي لتناول الشاى أو الطعام بطريقة حاسمة غير أنه أبلغني أننا سنصل بعد وقت قليل إلى مكان أفضل نتناول فيه ما نحب فوافقته رغم شعوري بالإرهاق والجوع ورغبتي الكبيرة فى الاستراحة قليلا من عناء الطريق.

فى منطقة معينة أوقف الرجل سيارته وطلب منى النزول فنزلت، كانت صلاة الجمعة قد حان وقتها، أخبرني الرجل أننا سنصلى فى مسجد صغير أشار باتجاهه وأنه سيوفر لي ماء الوضوء غير ماء البركة الموجودة أمام المسجد والتي يستخدمها الناس بصورة لم ترق لي.

بعد الوضوء دخلت بصحبته إلى المسجد فإذا به عدد قليل من الناس

يتلون الكهف فى سكينة مبهرة وقد انتشرت فى ساحة المسجد رائحة احتراق أعواد كثيرة منتشرة فى جدران المسجد فى روحانية جميلة.

بعد أن صليت ركعتين جلست أنتظر ظهور خطيب المسجد عدة دقائق لكنه لم يظهر.

ودون توقع طلب منى الرجل الذى صحبني بسيارته أن أخطب الجمعة فيهم، أخذتني المفاجأة قليلا ثم وافقت، كانت الخطابة من الأعمال التي مارستها لسنوات فى بلادي وفى مساجد كبيرة تحتشد بالمصلين فلم أهب صعود منبر صغير رأيته متواضعا للغاية.

حول معنى الإسلام والإيمان والفرق بينهما دارت خطبتي التي امتدت لأكثر من نصف ساعة امتلأ خلاله المسجد بالمصلين.

كان الرجل يرقبني خلال الخطبة بإعجاب واضح يبعث الاطمئنان فى داخلي.

بعد الصلاة طلب منى الرجل نفسه الجلوس على حصير مفروش تحت شجرة عتيقة مع كل من حضروا الصلاة .

بعد لحظات غاب فيها الرجل فى بيت بجوار المسجد خرج علينا بالطعام المكون من اللحم والأرز والسلطة والسلتة التي يتصاعد بخارها بصورة مدهشة.

جلسنا جميعا لتناول الطعام إلا الرجل الذى صمم على توفير ملعقة أتناول بها الأرز فشعرت بحرج شديد.

كانت أكف الناس أمام عيني تقبض على الأرز ثم تضغطه بطريقة آلية ثم تقذفه بمهارة موروثة إلى أفواه تنتظر وكنت أتناول

الأرز بخجل شديد خشية أن يسقط بعضه فيثير سخريتهم منى.

بعد الغداء شربنا القهوة اليمنية المصنوعة من قشر البن ثم صعدنا إلى السيارة لنواصل السفر.

فى الطريق أخبرني الرجل أنني سأصل بعد دقائق معدودة إلى (واسط)حيث يعمل صديقي المصري فسألته عن وظيفته ليفجر الرجل فى سمعي مفاجأة لم أكن أتوقعها لقد كان هذا الرجل محافظا لمحافظة صعدة.

ضحكت من المفاجأة فتغير وجه الرجل وسألني عن سبب ضحكي فأخبرته أن المحافظ فى بلادي نصف إله تحيط به الحراسات من كل جانب ولا يسعد بالجلوس معه إلا أهل السلطة و الأثرياء وكبار رجال الاعمال.

ابتسم الرجل فى وجهى ثم أخبرني أننا جميعا من تراب وأن الدنيا حق الله وأن الأرض ستبتلع الجميع عاجلا أو آجلا.

نزلت فى (واسط)شاكرا له جميل معروفه وحسن صحبته ومتمنيا أن تسمح لنا الأقدار بلقاء آخر.فى واسط. سألت بعض الأشخاص عن مكان صديقي فأرشدوني إليه وقد تطوع شخص كريم بتوصيلي إليه. فى الطريق كان الرجل صامتا يسرع الخطى رغم تقدمه فى السن وأنا أتبعه حاملا حقيبتي كصغير خلف أمه.

حين وصلنا إلى المدرسة التي يعمل بها صديقي والتي كانت مغلقة ظل الرجل يصيح:

— يا أستاذ. .يا أستاذ. .معي ضيفان.

كنت أبتسم من صياحه واستخدامه لكلمة ضيفان التي كان يقصد به الجمع تكريما لي كركب وركبان وغيط وغيطان.

ثمة لغة جميلة تشنف سمعي وتطربني نطق بها الرجل بعفوية تامة فى بلاد نشأت بها لغة العرب الأولى طازجة نقية قبل أن تتفرق قبائلهم وتختلف ألسنتهم فى شبه جزيرتهم وخارجها بعد انهيار سد مأرب العظيم فى سالف الزمان .

الطعام على المائدة

فى الشقة التي كنا نقيم فيها فى شارع تعز بمدينة اب اليمنية كنا أحد عشر مدرسا من محافظات مصرية مختلفة جمعتنا أقدار طيبة للعمل فى أماكن عديدة بمحافظة اب المشهورة بلقب اللواء الأخضر والتي منحها الله طبيعة خلابة وجوا جميلا طوال العام.

كنا نقضى أيام الأسبوع فى المساكن الملحقة بمدراسنا حتى إذا هل الخميس ذهبنا إلى اب حيث نلتقى ونتسوق ونراسل أهالينا فى مصر.

كان يوم الخميس بالنسبة لنا عيدا أسبوعيا ننتظره بشوق كبير ولهفة غريبة.

ذات يوم اجتمعنا فى الشقة وكان معنا ثلاثة أصدقاء آخرين وكان على أن أعد الغداء للجميع حسب النظام المتبع بيننا فى توزيع العمل . أحضر صديقي طلبات الغداء من السوق وقام آخر بغسل أدوات الطهى لتبدأ مهمتي فى نفس الوقت الذى انشغل فيه الجميع بمشاهدة فيلم الطريق إلى إيلات الذى أحدث ضجة كبيرة أثناء عرضه فى مصر والذى إستأجره أحد الزملاء من إحدى محلات تأجير أشرطة الفيديو بنفس الشارع الذى نقيم فيه.

غسلت اللحم ووضعته في قدر يعمل بالبخار ثم رفعته على النار ورحت أجهز الأرز والسلطات والخضار وغيرها.

بعد أن سمعت صفير القدر أنزلتها من فوق النار ووضعتها تحت ماء الصنبور لتبرد.

بعد وقت قمت بفتحها فإذا هي قنبلة تنفجر ليتناثر كل فيها فى كل مكان بالمطبخ دون أن يصيبني مكروه، أخذتني الصدمة بضع لحظات قبل أن اقوم بإغلاق باب المطبخ بجمع قطع اللحم بسرعة غريبة حتى لا يراها أحد ثم وضعتها فى القدر مرة أخرى ووضعتها على النار من جديد ثم أكملت بقية المهام مع تنظيف المطبخ وترتيبه فى لحظات معدودة.

عندما كان الزملاء يتناولون الغداء كنت أفكر فى سؤال يسيطر على ذهني:

— ماذا لو عرفوا بما حدث ؟

العجيب أن الطعام نال إستحسانهم وشكروني عليه فرحت أردد في نفسي :

— صدق الفرس عندما قالوا : الطعام على المائدة ولا داعى لمعرفة خطوات إعداده

..اللهم اغفر لي وسامحني.

مع الجن

أحد أصدقائي في الشقة استهواه عالم الجن، قرأ عنه كثيرا، واهتم به اهتماما بالغا وأصبح يتمنى أن يسخره لما يشاء.

كان هذا الصديق ينفرد بنفسه كثيرا في غرفته التي كثيرا ما يوصد عليه بابها، فنشم رائحة بخور يتسرب منها ونستمع إلى همهمات خافتة تطرق مسامعنا أحيانا.

ذات يوم أحضر معه شيخا يمنيا عرفنا أنه يهتم بهذا الأمر كثيرا. حقيقة كنا نأخذ هذا الأمر بسخرية واستخفاف كبيرين في البداية.

بعد تناول الغداء جلسنا مع الشيخ نتحدث عن الجن وعالمهم الخفي وأشكالهم و أعمارهم وأنواعهم وما يسببه بعضهم من إيذاء للبشر وكيفية التحصن من شرورهم.

كان الشيخ يجلس تحت نافذة فإذا به يقف ليفتحها بعد أن أخبرنا أنه سيحضر واحدا من الجن وسنتحدث مع الجني بما نريد ولا داعي للخوف منه لأنه لن يؤذى أحدا.

بعد لحظات قضاها الرجل واقفا بجوار النافذة يهمهم بكلمات لا نفهمها و يمسح صفيحة بين يديه جلس وقد تصبب عرقا و تغيرت ملامحه وصوته.

— السلام عليكم.

أنا الجنى مأمون من باكستان، عمري ٢٥٠٠سنة، أعمل طبيبا وأعالج كل الأمراض، ومستعد لخدمتكم.

بداية لم نصدق الأمر وقد أصبحنا في اندهاش كبير، فقط كانت نظراتنا تدور في الغرفة تبحث عن إجابات بعد أن أصبحنا وجها لوجه مع جنى خفى نسمع صوته ولا نراه وقد أصبح الشيخ اليمنى جثة يسكنها هذا القادم من بعيد وبلا إرادة.

بعد لحظات تجرأ أحد الأصدقاء وطلب من الجنى مأمون أن يطمئنه على حال أمه التي تركها مريضة قبل حضوره إلى اليمن.

صمت الجنى بضع لحظات أصبحنا خلالها نهشا للقلق.

بعدها نطق الجنى معلنا عن حضوره من مصر ليخبر صاحبنا بأن أمه بخير وقد تركها تتحدث مع جارة لها جاءت لزيارتها وأن الجنى أثناء مروره بين الأم وجارتها اصطدم بمنضدة بينهما فتسبب في كسر كوب زجاجي ، وأنه يعتذر عما حدث منه وأنه واجه اعتراضا كبيرا من جن المنطقة التي يقع فيها بيت صاحبنا وأخيرا سمحوا له بالدخول في البيت لأداء مهمته. معلومات غريبة ومثيرة أخبرنا بها الجنى مأمون لم نستطع تصديقها أو تكذيبها وإن كنا قد قبلناها باستغراب كبير.

في اليوم الثاني طلبت من صديقنا أن يتصل هاتفيا بأمه ليطمئن عليها وليسألها عن الكوب المكسور.

بعد أخذ ورد وافق صاحبي وتكلفت أنا أجر الاتصال تشجيعا له.

كانت فى داخلي رغبة كبيرة للتأكد من كلام الجنى وصدقه.

بعد خروج صديقي من كابينة الاتصال أخبرني أن كل ما قاله الجنى كان حقيقة وأن الجارة كانت بالفعل فى زيارة والدته وأن الكوب الزجاجي قد انكسر بالفعل وأن الأم أبدت دهشتها من هذه المعلومات التي أخبرها بها ابنها دون أن تعرف كيف عرفها، وبينه وبينها مسافات شاسعة ولم يكن معها فى البيت سوى جارتها العجوز.

سرنا فى شارع العدين الذى أجرينا من إحدى مراكز الاتصالات به اتصالنا بالأم ونحن نتعجب ونفكر فى الأمر.

ولما العجب وقد أخبرنا الله بما للجن من قدرة فى النقل و الانتقال بين طرفي الأرض بسرعة لا تفوقها إلا قدرة أهل العلم بالكتاب.

الأعجب أننا كنا نسمع كلمة يا جنى عشرات المرات من الأخوة اليمنيين دون أن نعى ما وراء الكلمة من دلالات.

وقد سمعنا أن المهتمين بعالم الجن فى اليمن أحد أركان المثلث الأشهر فى العالم العربي مع المغرب والسودان وكم من الحكايات سمعناها حول الجن فى بلاد السعيدة لنردد مثل أهل اليمن يا جنى.. ساخرين من كل إنسان يقوم بعمل غريب أو مرفوض.. اللهم احفظنا من شر خلقك إنك على كل شيء قدير.

خدعة الأضواء

صديقنا الذى يدعى الفراسة طلب منى أن أذهب معه إلى أحد المحلات الكبرى ليشتري له ثوبا أبيض.

كنت مرهقا بعد جولة تسكع قمت بها فى المعهد الزراعي بإب مع صديق آخر استمتعنا فيها بالهدوء والبراح و استعادة ذكريات طفولتنا فى مصر والتحدث معا فى بعض أمور تشغلنا.

صديقي الذى يريد شراء ثوب له لم يمهلني لأستريح فذهبت معه جبرا لخاطره.

حين وصلنا إلى المحل لم أدخل معه تحاشيا لجدله الذى أعرفه مسبقا مع الباعة.

وقفت أمام المحل أتأمل المارة وقد خف زحامهم فى الشارع بعد صلاة العشاء بينما كان صديقي يختار ثوبه من عدة أثواب عرضها عليه البائع بصبر كبير.

أخيرا خرج صديقي بعلبة أنيقة بها الثوب الذى اختاره بعد وقت. عندما وصلنا إلى الشقة فتح صديقي العلبة وفرد الثوب لنكتشف أن جزء من الثوب له لون مختلف عن بقيته.

وقتهـا انفجـر صديقـي غضبـا وانفجـر بقيـة الأصدقـاء فـى الشـقة ضحـكا بعـد أن عرفـوا بالأمـر.

علـى الفـور قـرر صديقـي أن يعيـد الثـوب لصاحـب المحل ليسـتبدله بثـوب غـير معيـوب إلا أنـه عـاد بنفـس الثـوب بعـد أن عـرف أن البائـع أغلـق محلـه ومضـى.

وقتهـا عرفنـا أن شـراء الملابـس يجـب أن يكـون نهـارا لأن نـور الله لا يخـدع أحـدا خلافـا للأضـواء الصناعيـة الـتي جعلـت مـن صديقـي مصـدرا لمـزاح جميـل لليلـة كاملـة.

شجون مغترب

ذات يوم لا ينسى من أيام صنعاء العالقة في ذاكرتي كنت فى طريقي إلى مكتب بريد التحرير لإرسال رسالة إلى أهلي فى مصر بعد مضى أكثر من عام ونصف على فراقي لهم، كانت الرسائل وقتها هي الوسيلة الأرخص والمتاحة لتواصل المغتربين مع ذويهم فى أي مكان، أما شبكات الهاتف فقد كانت سيئة للغاية ومكلفة.

حين دخلت إلى مكتب البريد رأيتها تختار بطاقات معايدة كثيرة من لوحة يتم فيها عرض البطاقات لمن يرغب .

البطاقات تحمل صورا مختلفة لمعالم الحضارة اليمنية القديمة وهى رخيصة وأنيقة ولا تحتاج سوى جملة أو جملتين على ظهرها لتكون برقية جميلة وقصيرة لمن تحب.

الفتاة التي بدت أنيقة للغاية أصبحت هدفا للعيون التي تتلصص مفاتنها بدهشة.

كانت وحيدة تقف فى إحدي زوايا المكتب لتعد البطاقات التي اشترتها باهتمام واضح.

القلم المذهب فى يدها والحقيبة المعلقة على كتفها الأيسر و الدفتر الذى تكتب عليه كلها أشياء تخبرك بأناقة روح فريدة.

حـين أنهـت الفتـاة كتابـة بطاقاتهـا وقفـت بجـواري تنتظـر فـراغ الموظـف مـن تسـجيل رسـالتي الوحيـدة والـتي كانـت خطابـا مطـولا عـن أحوالـي خـلال الفـترة الـتي قضيتهـا هنـاك محـاولا أن أبـث فـى نفـوس أسـرتي الاطمئنـان .

عندمـا تحدثـت الفتـاة إلى الموظـف الـذى أبـدى لهـا اهتمامـا كبـيرا جعلـني أشـعر بالحـرج أيقنـت أنهـا مـن الإسـكندرية الـتي تتميـز بلهجـة عذبـة بـين اللهجـات المصريـة.

باحـترام شـديد سـألتها عـن سـبب وجودهـا فـى صنعـاء بعـد أن عرفتهـا بنفسـىفأخبرتني أنهـا ابنـة لأسـتاذ جامعـي فـى جامعـة صنعـاء وأنهـا تعيـش معـه فـى شـقة صغـيرة بالقـرب مـن الجامعـة،

وأنهـا كانـت تـدرس الهندسـة بجامعـة الإسـكندرية، وأنهـا أجبرت علـى الاغـتراب بعـد وفـاة والدتهـا فـى فـترة كان أشـقاؤها جميعـا خـارج البـلاد عمـلا أو دراسـة.

خرجنـا معـا مـن مكتـب البريـد بعـد أن تعـرف كل منـا علـى الآخـر، عبرنـا شـارع التحريـر باتجـاه سـوق الملـح، أوقفتهـا أمـام بقالـة كبـيرة تطـل علـى الميـدان لنتنـاول معـا زجاجتـين مـن الميـاه الغازيـة.

كانـت الفتـاة سـعيدة بالحديـث معـي وكنـت أنـا أطلـق لخيالـي الشـاب عنانـه ليصـل بـي إلى عـالم الدهشـة الـذى فتحـه أمامـي لقـاء لم يكـن متوقعـا. سـألتها عـن البطاقـات الكثـيرة الـتي أرسـلتها فطـرح وجههـا ابتسـامة كـوردة بريـة لتخبرنـي أنهـا تهتـم كثـيرا بمراسـلة كل أهلهـا وصديقاتهـا فـى مصـر ولا تنسـى منهـن أحـدا خاصـة فـى الأعيـاد وأنهـا تسـتقبل منهـن رسـائل كثـيرة تعتبرهـا سـببا فـى

ابتهاجها وتخفيف حدة اغترابها. تعجبت كثيرا من قسوة شعورنا بالاغتراب عن بلاد أجبرتنا عليه بقسوة كبيرة كأم طردت أبناءها عنها لحظة غضب لم نعرف سببه. أن أجمل ما في الإنسان إرتباطه بكل إخلاص ووفاء بأرضه وأهله ومحاولته تغيير واقع الحياة فيها إلى الأفضل.

إن لدى أي إنسان فينا طاقات خلاقة منحها له الله لتعمير الأرض ومحاصرة القبح فيها آملا في اتساع رقعة الجمال التي توثق علاقة هذا الإنسان بأرضه وكينونته. غير أننا في بلادنا –ولأسباب قهرية كثيرة – نلعن ارتباطنا بالمكان ليحاصرنا ببؤس وشقاء كبيرين كسجن مظلم.

في اعتقادي أن الإنسان رغم ضعفه هو سيد الموقف في جدلية صراعه مع الحياة، نعم قد يتعرض الإنسان للكثير من الضغوط القاسية التي تجعله ينفر من مكانه إلى عوالم أخرى أكثر رزقا وحرية، غير أنني على يقين تام أن من صنعوا الحضارات وبنوا الأمم و أصبحوا صورا مضيئة في مسيرة تاريخ البشرية هم أولئك المتشبثون بالأرض لا أولئك الهاربون منها نحو جنات لا تخصهم ولو تمتعوا بها قليلا في أوقات مغايرة .

أذكر أنني رأيت منذ زمن بعيد في طريق صحراوي موحش رجلا فقيرا نصب خيمة راح يبيع بجوارها أطعمة خفيفة مع أكواب الشاي للمسافرين على هذا الطريق، حكى لي حكايتها ببساطة شديدة وكيف أتته هذه الفكرة الغريبة وكيف تعب في تنفيذها.

فـى البدايـة ظـل لأيـام لا ينتبـه لـه العابـرون بسـرعة، بعـد وقـت قصـير أصبـح مقصـدا لهـم يسـتريحون عنـده بعـد أن يتناولـوا طعامـا وشـرابا فـى سـعادة غريبـة ثـم ينصرفـون بعـد أن يمنحونـه تحياتهـم ونقودهـم.

بعـد أشـهر قليلـة تحـول المـكان إلى اسـتراحة كبـيرة إزداد فيهـا عدد العمـال والخدمـات إضافـة إلى مسـجد بنـاه أحـد المتطوعـين مـن أهـل الخـير، وقـد نمـت فـى المـكان أشـجار عديـدة لتهـب المـكان ظـلالا وجمـالا وسـط صحـراء جـرداء .

إن مثـل هـذه الحيـاة لم تكـن لتنبثـق فـى تلـك الأرض سـوى بمحبـة صادقــة لها.

إنـني علـى يقـين تـام مـن حـب أي إنسـان لأرضـه واعتـزازه بهـا اعتـزازا كبـيرا، خاصـة فـى أرضنـا العربيـة الـتي منحهـا الله مـن الخـيرات والسـمات والقدسـية الروحيـة والتاريخيـة مـا يجعلنـا نفخـر بهـا أمـام كل شـعوب العـالم، حالـة تحقـق ذواتنـا فيهـا وقبضنـا علـى حيـاة أفضـل تصبـح فيـه كرامـة الإنسـان وحريتـه وحياتـه متحققـة بصـورة حقيقيـة فـى واقـع الحيـاة يشـعر بهـا الجميـع مـن المحيـط إلى الخليـج بـل وكل إنسـان عربـي فـى أي بقعـة مـن بقـاع العـالم . فلمـاذا أصبحنـا مطمعـا لـكل مسـتعمر وأرضـا متاحـة لـكل صـراع لا يجنـى شـروره سـوانا ولمـاذا أصبـح الفـرار أقصـى أحـلام شـبابنا وشـيوخنا؟

إننـا لـن نغـير واقعنـا إلى الأفضـل إلا مـن خـلال مواجهـة حقيقيـة لذاتنـا العربيـة الأصيلـة والمفتقـدة والبحـث عـن أسـباب جوهريـة تحيط برغبتهـا فـى الاسـتسـلام لاغترابهـا تحـت أي غـرض أو سـبب.

لحظتها فقط سوف نستطيع علاج كل حالات الخلل السياسي والاقتصادي والاجتماعى وقبلهما الخلل الفكري الناشئ فى نفوسنا منذ زمن بعيد بسبب قلة فرص العمل وعدم التكافؤ وغياب العدالة و عدم الشعور بالرضا على واقع تحكمه أنظمة مستبدة لا تبحث عن تنمية حقيقية للبلاد بل تعمل ليلا ونهارا على إلهاء الجماهير والتفنن فى اختراع طرق جديدة تذلل لها قيادتها لتظل المقاعد الفخمة مقصورة على أشخاص بعينهم يقاتلون بكل شراسة حفاظا على نفوذهم الذى هيأ له الواقع المتردي فرصة الوصول إليه.

ثمة خواطر كثيرة انفجرت فى رأسي بعد مقابلة الفتاة السكندرية فى صنعاء أثارها الحوار معها لدقائق معدودة فى لحظة اغتراب كشفت عن عيوني غشاوة لم أكن أشعر بوجودها من قبل.

وكم من النماذج البشرية المؤهلة علميا رأيتها تكدح فى شوارع الحياة بحثا عن حياة تليق بها ؟

إن مواردنا البشرية التي منحها الله لنا لن تكون عبئا فى يوم من الأيام إلا على من لا يحسنون إدارتها واستغلال طاقاتها والاستفادة من إبداعاتها ومبتكراتها بشكل جمعي، وسوى ذلك ستتحول كل هذه الطاقات إلى قنابل موقوتة قابلة للانفجار المدمر في كل شيء رفضا لواقع سيء لا يليق بها.

عن الإنسان والحضارة

بعد أيام قليلة من وصولي إلى صنعاء اكتشفت بالصدفة وجود متحف للحضارة اليمنية القديمة على بعد خطوات من مقهى أزال الذى كنت أتردد عليه كثيرا للقاء أصدقائي.

كان المتحف صغيرا نسبيا ولايليق من وجهة نظري بعظمة التاريخ اليمني القديم الذى سمعت عنه فى طفولتي وأنا أحفظ القرآن الكريم فى كُتاب القرية.

وعرفت بعد ذلك أن هذا التاريخ ينضم باقتدار إلى حزمة حضارات قديمة نشأت في مصر وشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والرافدين تمت الإشارة إليها كأمجاد أمم عظيمة بلغت شأنا كبيرا فى التقدم الإنساني عمارة و حكما و نفوذا وهيبة إلا أنها لم تكن بنفس المستوى فى الارتقاء الروحي أو الناحية الإيمانية بخالقها فاستحقت عقابه كجزاء عادل لما فعلت.

إن عظمة المباني الفرعونية و عرش بلقيس و المنحوتات البديعة فى الجبال الشامخة وغيرها مما يدل على قدرة الإنسان فى تحديه للطبيعة وتفوقه عليها بهذه الصور المحيرة للعقل البشرى لم تشفع لأصحابها حال افتقادها للعدل الإلهي المطلق الذى جعله الله ناموسا للحكم بين خلقه أجمعين متمثلا فى شريعته التي استمر

نزولها من السماء لقرون طويلة ليحملها إلى الناس أنبياء ورسل اختصهم الله بأداء أمانة التبليغ دون بقية الناس.

إن المتأمل فى الحضارة اليمنية القديمة بوعى وإدراك لابد وأن يصيبه الذهول من حديث المولى عزل وجل على لسان الهدهد الذى اقترن ذكره بالكشف عن طرف خفى من هذه الحضارة التي لولا جلالها ما أشار القرآن الكريم إليها. فبلقيس حسب ما أعتقد هي أول ملكة متوجة فى التاريخ وعرشها الموصوف فى كتاب الله تعالى بالعظمة يتحدى قدرتنا العقلية لكي تتخيله، ثم تأتى جملة أكثر إثارة للذهول العقلي «وأوتيت من كل شيء» وهي جملة يدرك ما فيها أرباب اللغة لعظمة وصف الله تعالى لملك بلقيس بأقل الألفاظ لتفيد قوة الامتلاك مع شمولية ما تمتلكه هذه الملكة من الأشياء. إشارة قرآنية مبهرة تتحدى العقل البشرى بإمكانياته الكبيرة ليقف أمامها متأملا منبهرا (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) أي عظمة فى هذا الوصف البليغ وأي دلالات خفية تكمن خلفه لتشدنا للبحث عن جوانب هذه الحضارة العظيمة التي شرفت بإشارة القرآن الكريم إليها رغم عبادتها الوثنية للشمس إحدى مخلوقات الله دون عبادة الخالق ذاته جل وعلا، وكما جرت سنة الله تعالى على أمم قد خلت لم تبق من هذه الحضارات العظيمة سوى شواهد قليلة تشهد لها بعظمة غابرة.

الغريب فى الأمر هو عدم استلهامنا لاسهامات هذه الحضارات فى تاريخنا البشرى الحديث و عدم قدرتنا على الاستفادة منها بصورة ما وكأننا لا ننتمى إليها كإرثٍ حضاري عظيم.

إن مشاعل الحضارة فى أي زمان ومكان ليست حكرا على جماعة دون سواها أو شعب بعينه فهي نتاج إنساني ممتد فى كل الأجناس وحسب مقتضيات تاريخية عدة لكن راياتها الخفاقة تظل دائما بيد من يجتهدون لإنارة الطريق أمام البشر بعلم وإرادة وقدرات تخول لهم الوقوف على منصات التكريم طالما قدموا للإنسانية ما يخدمها. إلا أن أعلى درجات العظمة الإنسانية فى اعتقادي هي تلك الفترات التي عمَّ فيها العدل فى عهد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز.

تلك هي الإنسانية المضيئة للحياة البشرية فى أجمل صورها عدلا ورحمة وحقوقا تساوى فيها الجميع وواجبات إلتزم بها الجميع لتصبح هذه الفترات القصيرة نسبيا فى عمر الزمن نماذجا لما يجب أن تكون عليه حياة الجماعة البشرية فى كل زمان ومكان فهي فى جوهرها حضارة ارتقت بالإنسان وكرمته وحفظته بما لها من تعاليم إلهية سامية.

إن أي حضارة بشرية ومهما بلغت درجتها من الإعجاز والسمو لن تؤثر فى حياة البشر ولن يسطع نجمها مالم تكن قائمة على تعاليم سماوية لتخدم الإنسان كسيد لهذا الكون وخليفة للخالق العظيم فى الأرض.

لهذا كان فناء الحضارات القديمة التي انتهكت حقوق الإنسان واستعبدته بقوانينها البشرية الظالمة سُّنة كونية تجرى لقيام الساعة.

ولننظر قليلا إلى ما أنتجته فى وقتنا الحالي الحضارات المادية ومدى قتلها لروح الإنسانية الشفافة النقية لنعرف أن أي حضارة بلا ركائز إيمانية هي ضد الإنسان لا معه، وكفى دليلا ما يشهده العالم اليوم من حروب وصراعات لأغراض دنيوية لنعرف حجم ما خلفته هذه الحضارة من مآس إنسانية يندى لها الجبين الإنساني خيبة وعارا.

أبو النصر

رجل مصري .. ابن بلد أصيل تعرفت عليه فى أحد شوارع صنعاء، ذات ليلة كنت فيها عائدا إلى سكنى الكائن بشارع تعز وكان هو يمارس لعب الكرة فى الشارع الخالي من المارة بعد إنهاء عمله فى مطعم استأجره من أحد الفنادق، عرفته من لهجته المصرية وأنا أمر بالقرب منه، كان جسده ممتلئا ورشيقا وكانت حركاته مع الكرة تنبئ عن موهبة قديمة لم تستغل.

حين وصلت الكرة إلى قدمي قذفتها إليه مستعرضا مهارتي فابتسم كمن فهم مقصدي، تصافحنا ثم تعارفنا فى لحظات وشاركته ورفاقه اليمنيين اللعب لعدة دقائق إذ سرعان ما قفز أبو النصر إلى كرة هابطة على رأسه فسقط بجسده الضخم على أرضية الشارع المرصوفة فانكسر ذراعه الأيسر. تألمنا كثيرا لما حدث له وبعد دقائق كنا قد نقلنا إلى مستشفى الثورة القريبة من موقعنا والتي كانت فارغة تماما إلا من طبيبين وبعض المسعفين يؤدون عملهم فى قسم الطوارئ فى الفترة المسائية.

فى غرفة العمليات طلب منى الطبيب الأجنبي الذى سيقوم بجبر الكسر الذى أصاب ذراع صديقي أن أساعده بشد الذراع بقوة حتى يعود العظم إلى مكانه الطبيعي.

وكان صديقي يتوجع بقوة ورائحة المخدر تصيبني بالدوار وتعجزني عن متابعة إجراء العملية.

حقيقة لم أتوقع أن تتم عملية جبر الكسر لصديقي وأنا فاقد للوعى على سرير فى صالة الاستقبال بعد أن أغمى علي فجأة.

بعدما أفقت كان من الواجب أن أصطحب صاحبي فى الساعات الأولى إلى سكنه ليستريح.

سرنا معا فى شارع تعز الفارغ تماما من المارة دون أن نجد سيارة تنقلنا إلى السكن الكائن فى حي الصافية.

فى الطريق تعرفت على صديقي وظروف حضوره إلى اليمن التي لم يكن يعرف عنه شيئا حتى وجد نفسه فى صنعاء يبحث عن فرصة عمل مناسبة تحقق له أحلاما عريضة كان يحلم بها.

أخيرا وبعد معاناة اتفق مع فندق صغير ليكون مسئولا عن إدارة مطعمه الذى تتشكل غالبية رواده من جنسيات عربية مختلفة.

الغريب أن يقوم أبو النصر بإدارة المطعم بشكل مذهل بمفرده فهو من يجهز كل الوجبات وهو من يقدمها بابتسامة جميلة ومرح غريب وهو من ينظف أدواته ويرتبها بكل نشاط آملاً من وراء كل هذا أن يوفر ثمن تذكرة العودة إلى وطنه لرعاية أسرة تركها وأرض هجرها لحظة جنون ندم عليها.

إنها الحياة فى صورتها القاسية تعلمنا دروسا كبيرة فى امتحانات غريبة.

أمة واحدة

فى المدرسة التي كنت أعمل فيها بإحدى قرى محافظة إب اليمنية شاءت الأقدار لي أن أكون ضمن مجموعة كبيرة من المعلمين ممن جاؤوا من بلاد عربية شتى للعمل فى الجمهورية اليمنية.

كانوا خليطا من العراق والسودان والصومال وتونس وسوريا إضافة إلى مصر التي أمثلها .

ثمة اختلافات كثيرة فى العادات والتقاليد واللهجات والتوجهات الفكرية كانت بصماتها واضحة فى تعاملاتنا داخل المسكن المدرسي المكون من عدة غرف بسيطة التجهيزات والإعاشة إلا أن روابط كثيرة وقوية كانت تربط بيننا تتجلى فى أرواحنا المهمومة بوطن أكبر تمتد ربوعه بين الخليج والمحيط ،هذه الأرض العربية الطيبة الثرية بإنسانها وثرواتها و نضالها وحضاراتها المتنوعة بين عرب شبه الجزيرة وأمازيغ شمال أفريقيا و فراعنة مصر وكنعاني الشام وأشوري العراق وعرب اليمن

تلك الحضارات التي تشكلت خريطتها عبر أزمنة طويلة وانصهر إنسانها مع الحياة انصهار سبيكة ذهبية تميزت بقيمة متفردة بين الأمم المختلفة بعد أصبحت مهبطا للوحى وصار رجالها دعاة للإسلام فى ربوع العالم

لتصبح هذه الأرض نفسها قبلة لأصحاب الأرواح الراغبة في الإيمان من كل جنس، يسعون إليها جميعا بلهفة الظامئ إلى الإيمان والأمان والسكينة، إذ لا هدف للقادمين إليها سوى التبرك بها ورؤية الله في اجتماع عباده فيها وقد تحولوا بثيابهم البيضاء إلى أكبر تجمع بشرى يلهج بدعوات صادقة لرب الوجود في خشوع وجلال ونقاء لا مثيل له.

خريطة متسعة لأهم مناطق العالم يسكنها الملايين من أمة ينظر الآخرون إلى شعوبها نظرات استهانة واحتقار لا لشيء سوى عدم قدرة هذه الأمة على النهوض من كبوتها بل وعجزها التام عن اللحاق بركب التطور الحضاري بين أمم لا تمتلك جزءا صغيرا مما تمتلكه هذه الأمة العظيمة من ثروات طائلة لا يستفيد منها سوى أشخاص معدودين وبضع أسر تسيطر عليها بقوة الحديد والنار بينما تذهب خيراتها كليَّة إلى جيوب أعداء الأمة بطرق مختلفة ليرتع أبناء العروبة في فقر ومرض وجهل يائسين محبطين من تغيير واقعهم إلى الأفضل .

كانت المشكلة التي كثيرا ما نتناقش فيها وحولها تتلخص في سوء إدارة هذه الخيرات بقصد تام أو تجاهل كامل أو عجز غير مبرر رغبة في تركيع شعوبها للأصنام التي ظلت جاثمة على صدرها لسنوات عديدة و مازالت حتى الآن تمارس لعبتها البغيضة في إحكام السيطرة على زمامها بطرق شيطانية أدت إلى إفلاسها وظهور المجاعات والصراعات الدامية والتخلف العلمي والحضاري بطول خريطتها وعرضها .

ذات مـرة تشـاجر معلمـان لأن أحدهمـا سـب النظـام الحاكـم فـى دولـة الآخـر وكشـف الغطـاء أمامنـا عـن بعـض سـلبياته فمـا كان مـن الآخـر إلا أن يبادلـه سـبابا بسـباب وكان لتدخلنـا السـريع دوره فـى إنهـاء هـذا الصـراع قبـل أن يحتـدم .

لقـد اسـتطاعت هـذه الأنظمـة أن تحكـم قبضتهـا علـى شـعوبها بقـوة إعلامهـا وسياسـاتها المسـخرة كليـة للمحافظـة علـى السـلطة ورجالهـا لأطـول فـترة ممكنـة متجاهلـة نهضـة تنويريـة وتنمويـة تحقـق للبـلاد والعبـاد حقوقـا مشـروعة في حيـاة كريمـة .

إن مـا حـدث فـى أوروبـا مـن وحـدة فـى بـلاد ذات ثقافـات مختلفة ولغـات متعـددة وظـروف صعبـة وصراعـات كان مـن الممكـن أن يحـدث فـى بلادنـا العربيـة لتكـون متحـدة قويـة تنعـم شـعوبها بالحيـاة والتقدم والشـعور بالإنتمـاء الصـادق للإسـلام والعروبـة لـولا إختـلاف درجـات الوعـى عنـد حكوماتنـا المتعاقبـة والـتي كرسـت بدورهـا مشـاعر الفرقـة والإختـلاف والتعالـي بـين أبنـاء الأسـرة العربيـة الواحـدة لتصـل فـى نهايـة الأمـر إلى مـا نحـن فيـه مـن تمـزق وهـوان لينعـم بخبراتنـا أعـداء الأمـة لأمـد بعيـد.

حتـى هـذه الجامعـة العربيـة والـتي كان مـن المفـترض أن تسـعى لوحـدة العـرب وحـل مشـكلاتهم البينيـة أصبحـت عاجـزة تمامـا عـن القيـام بمهامهـا بعـد أن استسـلمت للوقـوع فـى براثـن واقـع صعـب تم التخطيـط لـه بمكـر واضـح.

الجمهورية اليمنية فى سطور

★ الموقع :

- جنوب غرب شبه الجزيرة العربية.
- تحدها المملكة العربية السعودية شمالا وبحر العرب جنوبا وسلطنة عمان شرقا والبحر الأحمر غربا.

★ أشهر المدن :

- صنعاء العاصمة السياسية، عدن العاصمة الاقتصادية، تعز، حضرموت

★أهم الموانيء :

- عدن، الحديدة.

* عدد السكان سبعة وعشرون مليونا تقريبا.
* الديانة الرسمية الإسلام.
* العلم مكون من ثلاثة ألوان .. أحمر، أبيض، أسود.

* أشهر الشخصيات السياسية:

- بلقيس.. ملكة قديمة ورد التنويه عنها في القرآن الكريم .
- الإمام أحمد بن حميد الدين
- الملكة أروى بنت أحمد الصليحي .
- عبدالله السلال ..رئيس سابق
- إبراهيم الحمدي ..رئيس سابق
- علي عبدالله صالح ..رئيس سابق
- علي سالم البيض ..رئيس سابق.
- محمد محمود الزبيري ..شاعر
- علي أحمد باكثير ..روائي وكاتب مسرحي.
- عبدالله البردوني ..شاعر
- د..عبدالعزيز المقالح ..شاعر .
- محمد الغربي عمران ..قاص وروائي.
- محمد عبدالوهاب نعمان ..شاعر غنائي.

بطاقة أدبية

- عبدالصبور السايح .
- ولد في ١٩٦٦/١٠/٢٨م ..مصر.
- عضو اتحاد كتاب مصر.

★ الأعمال المطبوعة:

- الساجدون ..شعر فصحى ..ثقافة قنا.
- ذات شتاء..شعر فصحى..طبعة خاصة.
- الصفقة ..مجموعة قصصية ..طبعة خاصة.
- أنتيكا ..شعر عامية ..طبعة خاصة .

★ تحت الطبع:

- أرواح عارية ..قصص قصيرة جدا.
- سفر ...قصص قصيرة جدا.

- إحتراق ...قصص قصيرة جدا .
- أوقات لا تنسى .. قصص قصيرة جدا .
- سنو ..رواية .
- أهلا بكم ..مقالات .

بعد التجربة

ما أجمل أن يقبض الإنسان على لحظاته الهامة وأحداث عمره الفارقة، تلك التي جلس فيها إلى شخصيات عظيمة أو زار فيها أماكن مهمة أو اكتشف فيها أفكارا جديدة أو رأي فيها جوانبا مجهولة من الحياة، تلك التى لا يظهر سوى الضئيل منها بينما يختفى معظمها فى صناديق الذاكرة خلف أسوار عالية من الأحداث المتلاحقة دون أن يستفيد منها أو يستمتع بها رغم أنها أجمل اللحظات وأبرز المحطات.

إن قصاصة ورق صغيرة بها بضع كلمات أو صورة بسيطة تؤرخ لحدث ما في حياتنا القصيرة لكفيلة بإثارة البهجة فى نفوسنا متى حصلنا عليها خارج وقتها، لأنها بلا شك جزء صغير من عمر يتفلت من أيدينا كماء بلا وعاء .

لقد عرف الأقدمون فى مصر وغيرها من الأمم القديمة أهمية التدوين لكل أحداث حياتهم نقشا أو رسما أو نحتا فأضافوا الي حياتنا علوما وفنونا وآدابا عظيمة لم تزل تحقق لنا فوائد عظيمة و بهجة كبيرة ما كان لنا أن نحصل عليهما إن لم يقوموا هم بذلك التدوين العفوي لمظاهر حيواتهم الغابرة.

إن روعة النقوش والرسوم فى شواهد الحضارات القديمة تمثل لنا حياة أخرى جديرة بكل عناية واحترام باعتبارها إرثا إنسانيا يؤرخ لمسيرته الطويلة عبر الزمن ليكشف لنا عن جوانب مضيئة في حياة الإنسان، هذا الكائن العجيب الذى استطاع بما وهبه الله تعالى من طاقات أن يعمر الكون الواسع بصورة مذهلة للعقل مثيرة للنفس تشهد بنضاله الدائم نحو الاستمرار والصعود على كل المعوقات الطبيعية والذاتية التى حاولت القضاء على وجوده أو تعطيل سعيه وراء اكتشاف أسرار عالمه، ومن قبلها أسرار نفسه لإقامة جدلية المزاوجة بينهما بما يصنع لهذا الإنسان حياة تليق به، نعم .. ما أحوجنا أن نتعرف على حياتنا بشكل عقلاني غير نمطي يتيح لنا أن نحس بهذه الحياة كجائزة عظيمة لنا من الواهب الأعظم سبحانه.

ومع التقدم الحالي فى مواقع التواصل الإنساني أصبح الأمر يسيرا جدا لنحظى باكتشاف عوالم خارجية وداخلية غاية فى الروعة الربانية والإبداع الإنساني عبر صورة أو تقرير لنسعد بها حال تأملنا بهدوء لهذا العالم الفسيح المليء بأسراره وغرائبه وأعاجيبه لنردد بيقين تام سبحان الخلاق العظيم الذى وهبنا كتاب كونه المعجز،وأمرنا أن نتأمله ليكون لنا إحدى سبل الوصول إليه.

من هذه الفكرة حاولت أن أوثق فترة خصبة من حياتي عشتها خلال التسعينات فى الجمهورية اليمنية أرض بلقيس العظيمة أتمنى أن تنال إعجابكم .

الفهرس

انطباعات أولى
في باب اليمن
أيام في (آزال)
فيروز في صنعاء
السيد سطوحي
بين قوسين
ذكريات من صنعاء
لحظات مدهشة
عن الوحدة والحرب
عادات وتقاليد
إب.. مدينة الروعة
مشيناها خطى
هنا ذو عرم
خطوة أولى
جلسة في إب
هل أنت قبيلي؟
أنا .. وأنت
سعيد عبدالله

ضيافة وحوار
مغامرة مع القرود
نافذة الحلم
الطريق إلى صعدة
الطعام على المائدة
مع الجن
خدعة الأضواء
شجون مغترب
عن الإنسان والحضارة
أبو النصر
بعد التجربة